رواية

صرخة غريب

جمال مرجان محمد

دار المبادرة للنشر والتوزيع

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2019/6/3114)

محمد، جمال مرجان

رواية صرخة غريب/ جمال مرجان محمد- عمان: دار المبادرة للنشر والتوزيع

2019

ر. أ: (2019/7/3114)

الواصفات: // الرواية العربية// الادب العربي

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية اخرى

الأردن- عمان - شارع الجامعة الأردنية

daralmobadarajo@gmail.com

DarAlmobdaraJo

00 962 795 030 790

دار المبادرة للنشر والتوزيع

ISBN: 978-9923-26-011-1

صرخة غريب

رواية

جمال مرجان محمد

الطبعة

2020 م

الفصل الأول

ها هو فرحات اليتيم ، الفتى ذوالتاسعة عشر الذي تربى في الحقول مع عمه،الذي رباه منذ الصبا ونعومة أظافره ،حيت كان يسهر عمه على راحته ويوفر له الملبس،لقمة العيش،ويزيل الهم والعبوسة من وجه فرحات كلما إستفاظ غضبا من ابن عمه الذي كان يعادي أباه نظرا لإحتلال فرحات حيزا كبيرا من قلب عمه صلاح ،حيت يناديه الناس بإسم "صويلح" ،وقد كان لوفاة عم فرحات، يوم الواحد والعشرين يناير بالأحد الأسود ،تم قام ابن عمه ببيع الحقل فلم تبقى له إلى الذكريات تطارده في ذاكرته وخياله. تارة تجعله يبتسم وتارة أخرى تدمع عيناه وتسكب دموعا غزيرة، تلتقطها جيوب الأرض .لم يتبقى لفرحات قلب يضمه، ولا حقل يعمل فيه. الأن،أصبح هاجسه الكبير هو الإبتعاد عن حقد ابن عمه له. ونظراته الإفتراسية،وتغيير نمط عيشه بالتفكير في السفر،والتوجه صوب المدينة لينعم بالإستقرار، حيت كان يلتقط بعض الأخبار على مسامع أدنيه مند صغره بأن المدينة فيها حياة جميلة، تداعب الأحلام وفرص شغل متوفرة ناهيك عن الرفاهية الغذائية. وكذلك وجود خاله أحمد

بالمدينة التي هاجر اليها منذ عشرين سنة.وبعد مرور سبعة أيام على موت عمه الذي كان يلعب دور الأم والأب الحنونين معا.الذي أمده بأغصان خضراء من الحب والعطف .وفي يوم الإتنين التاسع والعشرون يناير لما غطى الليل الأرض بستار الظلام الأسود لم يرتح له بال وأفكاره مبعثرة وتفكيره يشوبه تشويش وحيرة كبيرة في ترك البلدة التي تدعى قرية"الفرسان" في كل دقيقة وثانية.استهل الصباح وصياح الديكة يبشر بيوم جميل.

ويحسم فرحات قراره النهائي، هو التوجه صوب مدينة الرباط. فأخرج النقود التي كان يخبأها في وسادة نومه. حيت كان يحصل عليها نتيجة منحها له عمه عند بيع المحصول ،حمل حقيبته ووضع فيها تيابه الرثة منها المتلاشية،دون الإستغناء عن آلة العزف إنها الناي ،وضع حقيبته على ظهره متوجها نحو الطريق الرئيسي، أي موقع القطار الذي يبعد اثنا عشر كيلومتر، وهو في طريقه إلى سكة القطار كلما رأى رجلا غريبا، فرّ هاربا، مرتعبا خائفا وأخذ حيطته، وحذره عن مسافة بعيدة عن الغريب،إلى أن وصل إلى موقف القطار وفي حالة من التعب والرعب الشديد، وتهاطل

عرق جبينه، كتساقط قطرات المطر.علم أن القطارسيتأخرلنصف ساعة، فأدخل يده إلى حقيبته، وهو يلوح بنظرته في أحوال الناس المتكدسة كالبضائع. فأخرج قنينة الحليب وبعض الخبز اليابس وتناوله كأسد يلتهم فريسته بشراسة. وبعض لحظات من الترقب، الإنتظار، والسخط وصل القطارفبادرالمسافرون إلى مواساة عائلاتهم وتوديعهم بأحرّجمل الوداع والغربة. فهبوا متسابقين إلى القطاركأنه شجرة مثمرة يتسابقون لجني ثمارها .إلا فرحات الذي إتجه إلى القطاربخطوات متأنية،مستعجلة وعينين محمرتين من شدة التحسروالبكاء. حيت لم يجد من يودعه إلا الرياح التي ترمقه كأنها تعانقه تم تتركه .فمرات عدة يسقط الكيس من فوق ظهره فيمسح الدموع الجوفاء التي تتساقط .يا أه أيتها الأيام السعيدة كيف تخون بريئا يئست منه النفوس. كانت الذكريات بالنسبة إليه تفترسه بصوت الأمس وصدى اليوم .تتراقص على جفونه بصلابة بين الحين والحين . حفنة الذكريات موطن الألم لا تندمل . تجهم وجهه وإحمرإحمرارا شديدا لأنه سيشد الرحال الى ذلك المنفى الغريب بحماس شبه منعدم . لكن بنضال من قلبه تتلهب عواطفه

وتتأجج مشاعره لينتصر على الكآبة في قوة التحدي فاتحا الباب في وجه المغامرة. نحو العظمة والإرادة الحرة والدروب الخفية الجديدة . نادته نفسه حينما هبت أهازيج النفحات التي كانت تتنافروتتناقر مع نسمات الجو المحموم بإقتناع لا مفر. وهو يلتفت إلى نهاية مدى بصره مستغربا من قريته التي تناظره بأسى كأنها تقول ارحل يا مجهول النداء .

وهمّ بمقطورة مصغرة لعالم أكثر تطورا وحداثة. وصوت المحرك النفات يخنق الأنفاس .فانطلق القطار والأيادي تلوح على وداع الذكريات وعيناه لا تفارقان النافذة.وبداخله تتناحر ألاف الأسئلة. فهل ستكون أخر نظرة لي لبلدتي الغالية التي تدعى "قرية الفرسان" أم إتجاه نحو الغربة والموت.

وداعا يا حبيبتي سأضمك إلى حين عودتي، فلا تحزني ولا تيأسي، إن لم نلتقي مجددا. لقد تركت فيك يا قريتي قلبا نازفا، وعينا دامعة، وأذنا سامعة ترفقي بالأمانة وكفكفي دمع اليتامى وأعيدي حبك لأبنائك واحتضني أطفالك بعدها سأستعيد أمانتي التي أودعتك إياها بعد أن يكون جرح الفراق قد اندمل

الفصل الثاني

ما هذه الغرف الكتيرة ، إنها تشبه البيوت الصغيرة التي ننام فيها لكنها مزدحمة،الضوضاء،الضجيج،يا للفوضى.دعني أتمشى قليلا لأكتشف أسراروخبايا هذا القطار. فكل قدم تلوح وتدوس الحديد طقطقة، ورائحة الصدأ تعكر صفو الجو.فأخد نظرة سريعة إلى الفضاء الخارجي في خلسة. فرأى شرارة لهب تتيرها عجلات القطارفي إحتكاكها مع السكة فتملكه إحساس بأن للقطارقلبا من نار...يا للعجب كل الغرف مرقمة إنه تنظيم رياضي دقيق هذه الغرفة 76 و77 و78...توعكه التعب وملل شديد كأن به كسرا في عظامه ،سأدخل هذه الغرفة رقم تسعة وسبعون فالطريق نحو الرباط، لا يزال بعيدا. والشوق والحنين يجذبني ويملأ عيوني دمعا، وتركبني قشعريرة دافئة، لكنها تكون مرّة تجعلني أرتجف خوفا من القادم البعيد، الجديد. ومن الوجهة المجهولة...إقترب من الغرفة تمانية وسبعون ويمضي ورائحة العطر، تفوح وتعطر الجو. كأن الغرفة بستان زهر، تفتحت وروده، وألقت روائحها الزكية. أسرع في الدخول، ووقف في البوابة على مضض، مذهول، مسعور. حتى أنه لم يطرق باب السلام،

تذلت عيناه وأشوك شعررأسه ،يتنفس ببطئ، لهول ما رأى خمسة بنات مزركشات، معطرات. لباسهن غيركافي لتغطية عوراتهن،تلاثة منهم شعورهم مذلات،بيضاء،تشع كالتلج والأخريات شعرهن مصبوغ ألوان، ولا يتجاوز العنق ...ووجهوهن ملطخات بكل أنواع الصباغات التجميلية.وأفواههن حمراء، كأنها تسيل دما. ناهيك عن السلاسل، والخواتم فهي أشكال شتى ...تم بعد هنيهة كان الصمت يخيم فيها نطق لسان فرحات عن مكبوتاته قائلا: لن أناديكم بإسم النساء فأنتم من العار أن تكونوا نساء أيتها المومسات المتعريات في وضح النهارألا تمتلكون أخلاقا ولا حياء تفسدن أخلاق الشباب، وتروجن للمنكرألا تخافون على سمعة أبائكم اللذين إنحنى كاهلهم من أجل تربيتكم ومنحوكم الحياة والدم الطاهر...تم قاطعته واحدة منهم قائلة دون أن تترك المجال لفرحات ليعبرعما يختلج به صدره .أيا سيدي أنا إسمي خديجة امتهنت هذه الأفة. لأن أمي تحتاج لدواء في أسبوع خمسة عشرألف ريال. فهل يجوز أن أترك من أرضعتني تموت؟ وأنا أشاهدها أم أعطيها جرعة سم لأتخلص منها؟.أما هذه الفتاة فهي بسمة ومن أين تأتيها الإبتسامة، وهي غارقة في

تربية أخواتها الخمسة، توفر لهم الملبس والمشرب والكتب المدرسية ،وأبيها سكير يضربها بإستمرار إدا لم تحضر له خمرا.. وهذه سعاد تعيل أخاها المشلول، وتوفر مصاريف التداوي. تم لزمت السكوت وهم يحدقون وترمش عيناهم كلمح البرق،

يحكي ويبوح بأن واقعهم ليس تجربة أو هواية. بل هو زمن إغتصب البراءة من ورود الياسمين وإقتلع جذورها من الحياة ورماها فوق صخر الموت،تراقصها رياح الموت وجفاف العواصف.إستدار فرحات وأغمض عينيه هنيهة، وكأنه يبحث عن جواب أو حل لأمرهن. أو لم يستطع مشاهدة سواد واقعهن ،تم هم بالخروج مسرعا يردد"أف أف أف"لا أستطيع تغيير شيئ، لكن أتمنى أن أجد خالي أحمد فقد إشتقت إلى رؤيته وملامسة حضنه ،فأسرع يا قطار فالحياة أسرع من عدوك، رشاقتك، وخفتك. وصل القطار،وفتحت الأبواب الموصدة. وهمّ المسافرون بالنزول وإشتد الزحام والتدافع كأنهم قادمون لنجدة القدس والمجسد الأقصى في فلسطين، أو كتورة على الفساد يقودها المسافرون.ينزل فرحات وهو عطشى فيلمح" الكراب" الذي يتسول بالماء ويردد "على الله".وضع كيس

حاجاته بجانبه، وتناول كأسين من الماء ودفع له درهما .فإلتفت إلى كيسه فلم يجده، فحملقت عيناه في كل الإتجاهات حتى كلّت. وساريجري بين الحشود يخترقهم كإبرة تخيط توبا .يا إلهي ضاع كيسي وضاع معه الناي الذي أعطاه لي عمي في ذكرى "الختانة" فيهيج في نفسه غضب شديد، ويخاطب الكل في داخله اليوم أعلنتم علي الحرب بدون سابق إنذار. أأنت محطة أم مقبرة لدفن أغراضي ؟ تم يسند رأسه إلى جدارالإسمنت ويتحسس واقعه المرير،وعيناه صوب الأرض تترنح مشحونة بدم اليأس، فيسمع طرقات نبوت، تقسوا بطرقاتها على الإسمنت. فيرفع رأسه ببطء، فيشاهد شيخا،عجوزا. كأنه من الملائكة لحيته بيضاء ويلبس جلباب أبيض تبدوا عليه الحكمة، والوقار.قائلا قم يا بني ما سبب جلوسك في هذه المحطة الوسخة، التي لا تمتلك قلبا للعطف على أمثالك، وهو يكرر الحديث، قم فالرجال لا ينهكهم الوقوف، ولا تخرقواهم ..تم وقف قائلا: جلوسي كمثل وقوفي يا شيخ أنا أريد العمل لا تظنني متسولا، أو سارقا يتسكع بلا ضمير.فيرد عليه بضحكة طويلة "هههه هههه"تبدو من ملامحك، أنك طيب رافقني لدي عمل لك، سينفعك كتيرا . خرج معا من

المحطة وإستقلا سيارة أجرة إلى أن وصلا إلى شارع السويقة، أمام منزل في واجهته لوحة مكتوب عليها لالة حليمة .طرق الباب ففتحت إمرأة النافدة فركزت بعينيها نحو الأسفل مرددة أنا قادمة يا شيخ علي.بعد خروجها ألقت التحية عليهما.فسألته عن سبب المجيئ والشخص الغريب معه فأخبرها بأنه شخص يبحث عن عمل وأنا أضمن لك حسن نيته.فقالت موافقة فما يأتي منك شيخ إلى الخيروالبركة أدخلا على الرحب والسعة. سأحضر لكم الشاي والرغيف .فردّ الشيخ لا يا بنتي الله يكتر خيرك أدخل يا فرحات إن إحتجتني فمنزلي هنا بالجوار فمرحبا في كل الأوقات. أدخلته وأطعمته ووفرت له غرفة ليستريح فيها من تعب السفر.بعد مرور تلاثة أشهر على وجوده في منزل فرحات،جاءه الشيخ يدعوا منه الحضور لحفل يقيمه على شرف زواج إبنته رقية وأنه سيكون سعيدا بحضوره،فلبى فرحات نداءه وحضر مأدبة العشاء ،فأستقبله الشيخ بأحر جمل الترحاب والمودة. تم أدخله إلى غرفة الضياف حيت أغلب من في الغرفة شيوخ وفقهاء يقبعون داخل ملابس بيضاء. ألقى التحية، وهو يتملكه نوع من الحياء والحشمة. تم جلس وأمد رأسه إلى الأرض مغلقا شفاهه.

حاول الشيخ أن يضيف إلى مأدبة العشاء شيئا من المرح، الضحك،والتسلية،فقال يا شيخ أحمد لقد بلغت الثامنة والأربعون ألا تفكرفي الزواج وتدعونا لحضور الزفاف ومباركته.فرد الشيخ قائلا والدموع تحجب عينيه، وسط ذهول الجميع وصار الوضع دراميا لما قال الشيخ أحمد كانت لي زوجة في البادية تدعى حنان وإبنا لا يتجاوز من العمر عاما سميته فرحات ،كنا نعيش في قرية "الفرسان"مع أخي صالح وإبنه عمرفي جو من السلام والمحبة. ويحيط بنا حقل كبيرتركه والدنا. كنا نزرعه ونحصد المحصول معا .لكن أخي أصبح يستولي على كافة المحصول فطلبت منه قسمة الحقل فرفض بشدة، بعدم رضاه فلم يترك لي خيارا سوى أن أذهب رفقة زوجتي لتقسيم الحقل. فنشب صراع بيننا أدى إلى وفاة زوجتي، على يد ابن أخي صالح بسكين أبيض وألفقوا تهمة موتها لي بعدما نزعت السكين من جسدها وإرتسمت بصماتي عليه. فقضيت في السجن ثمانية عشرسنة.لكن المفاجأة أني إلتقيت بهم بالأمس في شارع محمد الخامس، حيت يمتلكون منزلا كبيرا فاخرا ...بعد سماع فرحات لما قاله الشيخ أحمد أصبحت ترنوا كلماته وتسبح في أدنيه ،وإنكمش كالقطن

المغزول، تصلبت يداه،وإحمروجهه...ينادي في داخله حقا أنا عشت مع قتلتي أمي؟ لا لا لا لا أستطيع أن أخبرك يا أبي أن إبنك التعيس اليتيم جالس أمامك ؟ بعض لحظات وجيزة قاموا بإحضاروجبات العشاء من"كسكس،

الدجاج المحمر،اللحوم المبخرة،الحلوى،الشاي" لكن فرحات لم يتناول شيئا وإكتفى بشرب الماء.

الفصل الثالث

يتجه في الصباح الباكر إلى شارع محمد الخامس، حيت يوجد إبن عمه،ليتجسس ويعرف مخبأه، ليسهل عليه عملية الإنتقام.في تلك اللحظة كان الجو بارد ،كثيف الضباب، ولازالت الدكاكين مغلقة،وبعض المارة منهم من تبدوا عليه هيأة العامل، وبعضهم أبناء الشارع يستكينون بالرصيف، والأتربة تغطي وجوهم. فراشهم كومة من الجرائد وبجوارهم أكياس القمامة، التي تصدر الروائح الكريهة،تم يبعد نظره عليهم ممتعضا من نظراتهم اليائسة الممزوجة بصهيل الوجع، والألم.إنهم موتى مثلي عصفت بهم الحياة وسقطوا. لم يعلموا أن الذئاب لا ترحم الفرائس الضعيفة، بلا كبرياء المقاومة. تم توقف عن السير أمام المبنى ينظر إلى ضخامته وشساعته، وطول جدرانه، ونوافذه المختلفة منها الزجاجية،الحديدية.وفي مدخل البوابة الكبرى يوجد حارس ضخم الجسد ،عينيه جاحظتين ،شعره أسود يرتدي بذلة سوداء، كخفاش بلا حركة. يمسك هاتفا محمولا بين يديه.بعد ذلك إتجه صوبه مباشرة قائلا:

.السلام عليك سيدي

.وعليكم السلام ماتريد؟ ومن أنت يا هذا ؟

.أنا أدعى فرحات وسيد المنزل ابن عمي، جئت لمقابلته فهو ضمن جدول أعمالي، أدعوا معه في السراء والضراء بأن يطيل في عمره هههه،ولكن يقول في داخله سأنهي حياته قريبا على يداي هاتين البريئتين،وأقتلع عيونه المتسخة، يا خائن سأحرقك بأموالك حيا وأرمي جتثك للكلاب يا عمر.

-هههه حسنا.يضع الهاتف على أدنيه لإجراء مكالمة مع عمر،فيرن الهاتف لبضع تواني فيجيب بنبرة حادة، كأنه يتملكه غضب شديد.

-مابك أيها الحقيرتوقظني من نومي في هذا الصباح الباكر..

-فيجيب بنبرة خائفة متلعثم س.س سيدي، سيدي عمرهناك شخص يسأل عليك يدعى فرحات قال أنه ابن عمك ..

-هههه ابن عمي ياله من حقيرأطرده ربما جاء لطلب صداقة وأنا لا أقبل المتسولين في منزلي ..

.-سيدي قال بأنه لديه عمل معك لا بد من لقائك ..

- هههه أدخله لكي أرى ما يدور في رأس ذلك المعتوه..

- حاضر سيدي كلامك أوامر على الرأس والعين.

أدرك فرحات لما سمع المحادثة، خصوصا وأن هاتف الحارس

كان صوته مرتفعا. بأن الأمور لن تمر بسلام،ولن ينثني عزمه أو تصفوا حياتي إلا بالرقص على جثة عمر الغدار.أمسكه الحارس من ذراعه وصار فوق العشب، حتى اجتاز الفناء المجاور للمنزل. تم صعد من الدرج المظلم، كأنهم يصعدون إلى السماء في ليلة غابت فيها النجوم .إلا أن وصل إلى الغرفة المضيئة من الطابق الثاني.أصبحا داخل الغرفة وعمر جالس على كرسي ناعم ملفوف، بغطاء يشبه الحرير مليء بالقطن الناعم، ستارات تغطي النوافذ الزجاجية وزخرفة معمارية تأثث الحائط، لا تفهم أو تدرك معانيها بجلاء .فرحات يركز بعينيه الثاقبتين لعمر الذي يفصله عنه مائدة ضخمة ،تتموضع فوقها قنينات الخمر،وأكواب،إبريقين،منفضة السجائر،الغريب في الأمر أن عمر يضع مسدسا على ركبتيه.بعد الصمت الذي كان يجوب ويفصل بينهم

نطق فرحات المسالم قائلا: السلام عليكم

-فأجابه بتعجرف مقشرا عن أنيابه مغمغما في غضب ماذا تريد؟ ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ أجئت تتسولني مالا،أو تترجاني عملا...لا لا مكان لأمثالك هنا في سعادتي..

-السعادة،المال،لا تدوم (ولسوف يعطيك ربك فترضى...)لكني أحتقر بشدة الخونة،القطط القاتلة،الظالمة...

-يقاطعه ..هل جننت أي خونة،وأي قطط تتحدث عنها

- أنت قتلت أمي ..ورميت بأبي في السجن..

- هههه هههه وهل تمتلك دليلا ضدي ..أمك كانت تستحق الموت وكذلك أبيك ويحمل قنينة الخمر على مضض ويشربها دفعة واحدة وهو يصرخ رفقة ضحكاته الهستيرية منتشيا بطعم إنتصار يجول في مخيلته، التي سكرت بإكتمال أخر نقطة من قنينة الكحول.من زفّ لك هذا الخبر المحزن. حقا قتلت أمك الحمقاء هههههه

.لا شيء يمنع الفرعون من الموت، حتى وإن شيد أهرامات وقصور،اليوم جئت مسالما وربما مرة أخرى سآتي على هيئة ملك الموت لأخذ روحك

الخبيتة الملوتة بدماء أمي الطاهرة.أخبرني أبي أحمد الذي أخفيتم علي حقيقة وجوده جعلتموه ضعيفا،إنحنى كاهله ،عبس وجهه،تناسى الحياة،أفقده ظلمكم ،خيانتكم مشاعر الحياة وصار ضحية يشتكي بلا وعي. يريد أن يرقد بسلام متخلصا من قفص الحياة...أطلب منك يا ابن دمي الملوث، بأن تعطونا حقنا في الثروة حقى فى الميراث الشرعي أو ستحتضر لضجروحضن الموت القريب ...

-أتدرك عاقبة أن تتحداني وتطأ رجلاك نارا مندلعة ؟

- تصاعد الدم إلى وجهه متسائلا لماذا تبغضني إلى هذا الحد ؟

- يردد بغضب وفظاظة:

الخادم يبقى تحت نعل سيده. الى حين يبعثون. وجب عليه أن يمجده ويحافظ على سره، وينال رضاه، ويتحمل قسوته ويحمل سيده كالدابة. ويقتات ما يتبقى في الصحون في ذل الطاعة إن شاء سيده.

- بتحسر لماذا تبغضني منذ الصغر؟ ألا يكفي أنني عملت منذ صغري في مزارعكم وأعطيت عرقي وقوة سواعدي للأرض. وفي رعي الأغنام وفي خدمتكم كأسرة واحدة ملئها التضامن والتآزر؟

- أنت السبب ملئت قلب أبي كنت العين التي ينظر بها والأذن التي يسمع بها

-لو كنت حقا ملئت قلب أباك كما تقول لماذا لم يجعلني أدرس؟

- في رقة:

الخدم كالعبيد ليس لهم مكان بين القلم والورق مكانهم فقط بين الفأس والمطرقة..

فلمعت عينا فرحات وهو يقول:الخدم هم بنو الوطن ودفعوا دمائهم فدية لوحدة الوطن. وكل الأشياء التي تستعملها من ملبس ومنزل. فهي من صنع سيدك العامل تم تلى بتحسر إن لكل عبد جزاء عند ربه.وستدفع ثمن فعلتك غاليا.

-فرد بغضب : لقد أخفتني هههه أخرج علي لا أريد رؤية وجهك السخيف،المتجعد. خده خارج المنزل لقد عكر مزاجي ...فيجيبه حاضر سيدي

أمسكه الحارس بقبضته المتصلبة، مغرسا أصابعه في ذراعه يجربه إلى خارج المنزل تارة يهرول به مع محاولات يائسة للإفلات من قسوته، وخشونته دون جدوى. إتضح أن أبواب السلم أغلقت في وجهه وأن العقاب والانتقام عنوان كل خطوة قادمة. وتبين أن الزوبعة قد انقشعت ولم يعد العجز لائقا ولا يستحق الأمر تبديد الوقت دون تحقيق مكاسب.

الفصل الرابع

من الطارق..أنا فرحات..إفتحي يا حليمة الباب..حاضر أنا قادمة .تفتح الباب بسرعة وهي تصعد بعينيها محدقة فيه، من أسفله إلى أعلاه. تتأكد من سلامته،الحمد لله لقد عدت متأخرا اليوم إنها الحادية عشر ليلا قد تشوش بالي عليك وتبعثرت كل أفكاري، لما شاهدت التلفاز حيت قالت المذيعة عن حدوت تفجير في مقهى "أركانة" أدى إلى مقتل خمسة عشر شخص، وإصابة العشرات...بينما هي لازالت تتحدث، دخل ملامسا أطراف ذراعيها الناعمتين،إلى غرفته المحاذية لغرفتها،تم إستكان بجسمه، ساقطا بوجهه داخل الفراش البسيط، الملتصق بالأرض كأن الحياة والعداوة أسقطته بضربة قاضيه. أنهكت سواعده وجعلته يستلقي باستسلام، لحضن الأرض لينعم بحبها بعيدا عن الغدرومرارة الواقع. بعد يوم متعب سطعت فيه شمس حارقه، بلهب أحمر ملتفة بخيبة أمل. ملئت صدره بألف طريقة لينقد في الوقت المناسب، على الفئران التي أحدثت ثقوبا سوداء لعينة في قلبه،وأشربته مرغدرومكر ابن عمه ...لحقت به حليمة وإستمالته في إتجاهها ،وهو يلمح عينيها التي تتلألأ بإنعكاس الضوء

داخلها ،حيت إستقر بصرها في وجهه العابس، تحدق وقلبها يخفق في شفقة ولوم على ما أصبح عليه فرحات. من صمت ووحدة تجوب صدره النحيف ...تملكه أحساس غريب، لم يسبق له مثيل ففتح ثغره بإبتسامة، أظهرت على فكيه بعدما دخلها الضوء الخافت الساهر ،توقفت رموش العيون عن الأختلاج. وانفرجت شفتاه في حب فأمد لها يديه في رعشة، لا تسكين لسيول مشاعره، وإستجابته الحسية. ملامسا أطراف وجهها وشعرها الأسود، كسواد الليل. فيعانقها بقسوة، كأنما عناق لقاء بعد هجر حبيبة دام خمسين ألف سنة .فيغوصا بعمق في حلم رقص فيه قلبان، حتى شابى على أغنية مسائية. تعزفها الروح في جو يغمره نسيم بارد ومنعش. ويهمس في أدنيها بصوت رقيق يتوغل داخلها يجعلها تجلل بضحكاتها، التي تسافر متسللة إلى الفضاء والأفق عبر النافدة الخشبية.وأغمض عينيه مستسلما وملتهما لروائح شعرها. بينما هي تزيل عرق جبينه الذي يتساقط باردا تم تعيد جذب حواسه المرهفة حينما يختال شعرها الأسود في خفة وانسيابية ، قابعة في مكانها ، تشخص عيناه بنظراتها المحيرة ، وتحمل شفتاها ابتسامة رقيقة ، ثم يطرح

عليها بصوت خافت من أين تدفق كل هذا الحب تجاهي ؟ !! ... ثمة لغز محير وفي الحال ربت على قدميه أمامها ، وبنبرة صوت متهدجة ألقى عليها السؤال الآتي : - ما شأنك ياحليمة ، منذ ان دخلت مجال الرؤية لديك وأنت تنظرين إلي بحملقة أثارت حدسي وشهيتي المشحونة منذ زمن ؟ ...!! وزيادة في الحدس المتكالب على أوتاري العصبية معرفتك الجادة تبدوا أكتر استقامة ووضوح في المنطلق والرغبة !! .أحس بأننا إلتقينا في حلم غريب في أرض خضراء وأنت الشجرة الوحيدة المتمرة فيها .... هل سبق لنا التلاقح؟؟ام هي لحظة ظميريسترد جنونه أم رغبة جديدة في كفاح الحرية والمتعة التي خرجت عن الرقابة قالت : - أعرفك جيدا والآن اقترب أكتروسوف أقص عليك ما تحب معرفته .جلس بجانبها فانشرحت وجنتاها الحمراويتين في ود ، ورنت اليه بنظرة مستقطبة ، فبادلها بنظرة موحية بالإعجاب تكاد تلتهم جمالها دفعة واحدة ، فتورد وجهها وارتبك ، وانبعث من أعماقه شعور متوثب، حار وبهيج وطموح إلى غير حد ، دار بينهم حوار قصير وسرعان ما توقفت فتجلى لعينيه قوامها الناضج المتناسق ، أمسكت بيده ثم قالت بصوت ناعم : - أريدك معي.

وافق في الحال ، بدون تفكير ، وبدون معارضة ، ميعاد محدد، وفي الحال جاشت مشاعره ماذا حدث له !؟ لقد سحرته الفتاة ووقعت كذبابة في خيط العنكبوت ، ولماشغفها مزاجه الأكترخجلا ملئت كأسين من الكحول، عرضت عليه الكأس الاول ولكنه رفضت بشدة، تغيرت ملامح وجهها وقالت : -هذه فرصة العمر ، حذار من التفريط في سعادة بلا حدود . فاخذ الكأس من يدها وصافحاالكأسين صدمات خفيفة وهي تقول : - في صحة المحبة الجديدة . انهى كأسه في شربة أو جرعة واحدة ، عرضت عليه كأس تانيا فلم يمانع ، وجاء الثالث خلف الثاني، وأحس بحرارة شديدة ونشاط وحيوية جديدة . اقترح عليها رقصة ، وافقت في الحال فكما لو كانت تنتظر تلك اللحظة . اخذها من يدها وتراقصا في جو مفعم بالسعادة والمرح ، احتضنتها لمئات المرات في قلبه، وأحس بضربات قلبها الخافق في سرعة ..وهو يقول لها على سبيل الحب .

-صدقيني نحن من المأساة أحببنا

-أكاد أصدق اذا لم تكن تستعيروجها و قلبا

-عشت على انتظارك من النبضة الاولى

-حقا صارعت الانتظار؟

-اجل ..أنت البذرة التي تنمو فوق الأنقاض

-ردت بسخرية : أتمنى ألا أفقدك في الأنقاض و أنا لا أجيد الإنقاد.

-أنا من يخاف أن يفقدك

-لا تخف انا أنتى لا يغيرها الضهر و تساءلت في شك و يأس لما تشك في كل شيء و يطبعك السهو و التردد ؟

-سأكسر أنياب فك الوحوش الطغات

-لا تؤاخدني كم أكره الوحوش ..

-ليس كذلك هي وحوش ادمية تشن حربا خفية .

- و من يقاتل بشرف ؟ هل من المجدي ان نعلمهم المدنية و الانسانية ؟

- لك أفكار عظيمة من العسير فهمها تستطيعي بجملة تغيير الرأي العام

- لا أحب الرأي العام و الصحافة كلهم يمجدون السلطة يحاربون الفقير بصوت القلم

-تموج بجسمها مترنحة بملابسها الشفافة لتجذب عنها الغطاء و هي تمازحه

- تغطى يا وسيم صاحب جسم الجندي العتيد

-تفجر بضحكة قائلا :كل الجندي فقدوا أرواحهم و كرامتهم

- كم أنت قاسي .. لا تدرك معنى الوطن

- عبثا من هذه الأفكار السوداء كهذا الليل المظلم المقفر فلننفرح و نبتهج

-فابتسمت حتى ضهرت أسنانها اللامعة و هي تمازحه لست نذا لي في الثقافة

- أعترف بذلك يختفون وراء الثقافة لا يذركون معاناتنا

- لقد أراد لنا القدر أن نلتقي صدفة أ تدرك ذلك ؟

- منحة من الله.. أنت سعادتي

- أنت ضيف تقيل

-فقال فرحات متنهدا وبصوت ضعيف تكاد الجذران لا تسمعه وأنت روح كريمة وهذا من فضلك

-بلى من فضل الله علي.

جمعتهم نشوة دسمة وحيوية ملهمة عششت فيها البسمة

ظلمتهم المتحالكة تشابكت قلوبهم في صدام وأبحرت في عناق لطيف حتى سرقهم النوم وأخدتهم أنامل أحلامهم الناعمة تحت سقف واحد ..

ولكي ينمو هذا الحب وتشتد سواعده أو يشق الأرض كالبذرة في أرض كساها الجفاء واحياها الماء والحب عليه أن يخلق من العتمة نورا ومن العدم لمسة رقيقة تأخذها لعالم أخر.ويخلق لها من نظرته مفتاح الراحة فالحياة لا تستقيم ولا تستقر الا بالود بين العاشقان والتغاضي عما يعتريها من هفوات . وعدم التوقف والعتاب وخلق فجوة في علاقتهما .فالمثل يقول كل شيئ ينقص اذا قسم بين اثنين الا السعادة فإنها تزيد اذا تقاسمتها مع الحبيب ... واستقرارالحياة والمسيرة فيها لاتخلو من

ضنك العيش والعسرة ... كما لاتخلو من لحظات السعادة وأيام الهناء والعاقل هو من يصمد في وجه هذه المتغيرات ويتعايش معها ويذلل ما يعتريها من صعاب ... ولا يضعف ولايستسلم أمامها. ويحاول العمل بالتشاور والهدوء بالعمل مع شريكه على تجاوزها .

.لذلك أخدها في اليوم الموالي إلى الحديقة حيت كان كلاهما يفرش قلبه خضرة لإحتضان الأخرويتبادلان البسمة بحماسة يملئها الحنان كأنه يتنفس من رئيتها بإنتظام وتحاصره عيناها المتدفقة، كجواهر الحب الخالدة. ويمرر يده على يدها في حنية فائقة الحس والأدب الغرامي، الذي إفتقده من الوطن .داء التشبت والإصرار بلا تنازل عن الوجدان وتمرة الحب حليمة التي أزالت غطاء الحزن ومنازل اليأس عن قلبه بلا مقابل.فالحب يعمي البصيرة قبل البصر فهي موطنه وملجأه الأن الذي ينقده من الإحتضار ليرسم معالم وطن جديد خالي من الرهبة والفساد والجمود الذي كان يغتال مشاعره بلا منازع ليكابد الشوق وعنفوان الأرق الذي يسامره بابهى حلة في بؤرة أعماقه التي تنتفض وتدفع الدم نحو الرقص الوهيج الذي يطل من وجنتيه واساريره فهي الزهرة التي سقت

قلبه الجاف. بأطيب الندى. كلما عطش لرأفة والحنين وهو الذي أضاء مصابيح وجهها وصارع النسيم. الذي كان يتغزل بها أو يؤديها. أو هي العصفورة التي تحتمي وراء ظهره من الصياد الذي إستولى على المياه والغابات .تطالعه بنور كلوحة تفنن الرسام التشكيلي في رسمها وأبرز مفاتنها وفازبها غريب واحد يجالسها في هذه الحديقة. التي رتبت كل أغراضها من خضرة زاد إخضرارها. وبهجة لرؤية العشيقين وأزهار تمايلت إنحناء ،إحتراما، وإجلال تم تفتحت بالحب لهما. وعصافير غردت وزقزقت معلنة عن عهد جديد تباركهم.وتحتضهم نظارة وإضاءة الشمس في سلام تام وتناغم. مع النسائم العليلة، المخمرة بالود .فالحديقة لا تمتلك قلباهما فقط بل هناك الكتير من الأحبة الذين يرتمون فوق العشب تستهويهم الطبيعة الخلابة والأشجار التي تراقبهم في صمت وتحفظ أسرارهم في أعماقها. وهناك على الجانب الأيسر فتاتان واحدة منهم تبكي بحرقة شديدة بعدما تجاهلها حبيبها وأخد صديقتها حبيبة له. فهي لا تؤلمها الخيانة من طرف حبيبها بل حرقتها من غدر صديقتها التي كانت تتكئ عليها وتشد على يديها هي حبيبة حبيبها الجديدة. وعلى الجانب الأيمن

شاب يبدوا مثقفا يتخذ جذع نخلة ملاذه الأسمى. وفي جانبه حقيبة سوداء طواها النسيان .في داخلها شواهد ودبلومات يظنها بالنسبة إليه كنزا ثمينا. غير أنه يحادث على هاتفه صديقا له يخبره بأنه فقد صبره على الوطن وعلى البطالة التي نخرت قواه التعليمية ورغبته في إيجاد الفرصة الضئيلة.في الرحيل إلى الخارج. لتحقيق الأحلام .ولما شاهدت حليمة فرحات في سهاء وإشتد بصره الثاقب في تكاسل نخو الأسفل.

سألته برقة وعطف ،ما بك يا عزيزي شارد الذهن أهناك ما يزعجك أو يشغل بالك؟

-نعم أفكر في تصفية حساب، عالق في ذاكرتي.

-تخلى عن هذه الأفكار التي لا نفع منها ولا طائل.

-بدى غائبا فأجاب بهدنة:

لا أستحق لومك،هذا ظلم تم أمسك يدها وقبلها وهو يقول لقد قضيت شهورا أياما عصيبة أروض فيها نفسي على الصبر. ولم أستطع أن أزيل عبئ الإنتقام الذي يثقل كاهلي.

-جدبته من عنقه برقة حتى تشابكت عيونهما. كأنها تستقرء ما يجول بعقله وتحاول جاهدة إعادة الحكمة إلى حواسه. التي تفتقدها قائلة إن الإنتقام من شأن الله وحده.

- فرد بنبرة تشبه الهمس :

نحن خلفاء الله في الأرض لتطبيق العدالة

-إذن أطرق باب العدالة فهي تنبش في كل القضايا، وتحاسب على الخطيئة..

-العدالة...حتى تكتسب الشرعية وتستقيم ردود الفعل والأحكام ألا تعلمين أن العدالة تطورت في أخد حق المظلوم منه وبحق لصالح الظالم؟.

-المهم أن تحذر من العناصر الناقصة فهي تؤدي إلى انتكاسة وأنت مشعلي الوهاج المنير.

-وقال بإهتمام متزايد سأضحي لأجلك

-أتمنى ألا أكون ضحيتك

-لن يغرنني الشيطان رغم أن الظروف تحكم بما تريد إدا أحنت رضينا .

-هل تتق في الأيام

-من وتق بالأيام ضاعت أيامه لأنها مرة تكسرك وتصلبك ومرة تشفق بسخاء.

لاحظ أن حوارهما غير من ملامح وجهها من بياض إلى شاحب ..فتعرق وجهه وإصطنع بسمة ذابلة ميكانيكية كست ملامحه ليلطف الجو من جديد ودغدغها بنظرة سلبها من الجنة ليلتهم قدر المستطاع جرعة من جمالها الأخاد ويكتمل قلبه .كانت كافية لتعيد لها بسمتها وتوازنها الحسي المرهف وأصدرت ضحكة مدوية من أعماقها.

أعاد حليمة إلى المنزل. وذهب للحصول على عمل عند التاجر الكبير والمعروف بإسم "العبدي المنفوخ" ولازالت الساعة تشير إلى منتصف النهار، أي الظهر بحيت إتجه على قدماه ووجهه تلفحه الرياح الحارة. مشاهدا قرص الشمس وهو متلهب. كشرارة كهرباء معكوسة، ومتسلطة بحرارة مفرطة .بلا ذرة رحمة. مشحونة بكأبة غامضة. ورأسه تتقاسمه

هموم البطن والوطن والامة. مترامي الاجزاء فكره كالاشلاء وسط حالة استكانة، واستسلام لجسد . بدا الشارع فارغا الا من اطفال يتجهون الي المدارس وهم . يحملون هواتف ذكية ،ويتحدثون عن اغاني جديدة، حققت العالمية في كلماتها خدش بالحياء والتربية وبعض العمال اليدويين الباحثين عن لقمة عيش متمنعة في زمن صعب شكلت فيه عضلاتهم ربحا لأرباب العمل وظلت المآذن سامقة في عليائها والطيور في السماء والحمام المتوافدة على أسطح المباني لترتوي بالماء بعد ظماء من خزانات المياه المنتصبة عليها ... ولتملاء جوفها تمهيدا لعودتها لسقي صغارها المنتظرين بأعشاشها على أغصان الأشجار كما يمتع ناظره بالتحديق برحابة السماء وعمقها .... ونسوة وضعن المساحيق ليخدعن المغفلين وبعض القطط والكلاب الباحتة عن الطعام تشن حربا بينها .وشاب استبده العشق فاخذ يطارد محبوبته علي شارع السوبقة وغسال سيارات وبائعات الصاندويش وسائقي التاكسي المتجمعين ككومة وأصواتهم تعلو على بعضها تكاد تتقطع معها حبالهم الصوتية ومجالس حكاء فيها من ادعى العلم والمعرفة والعلم

برآء منه ومنهم ادعى الحكمة وهو أشر من الشر ...وهناك الكثير ممن نصب من نفسه مصلحا اجتماعيا وهو باشد الحاجة لإصلاح نفسه !!.. ناهيك عمن حمل لواء التبشير بالدين ونثر مواعظه يمنة ويسرة متخذا من نفسه مفتيا دينيا والكل فيمن يدعي يعتقد بانه وكيل الله جل وعلا على الارض ... كما وان هناك من حمل سياسة العالم على كتفيه وبدأ بالتحليل ومن ثم الجزم ...أما البعض ممن يدعي الطب ولديه بما يؤكده عن انه الترياق لكل مرض.وفرحات إخثارأن يدفع عربة أعطاه له تاجر يدعى "العبدي المنفوخ" لضخامة بطنه، وجحاظة عينيه ليبيع الملابس. بمقابل مادي حسب نسبة البيع في هذه المدينة التي وظعته وجه لوجه مع عالم جديد، غريب الأطوار طبقات إجتماعية. وطوابق الأغنياء الشاهقة فوق رؤوس البؤساء ، ثم في المساء يعود للبيت عابراً الطرق المليئة بطوابير الفقراء. أمام الأفران و المتسولين و المستضعفين، الشحاذين ، الخاطفين والنصابين. و المحتالين و المجرمين والمومسات التعيسات . و رجال الدين و المتملقين المسحوقين .و الموظفين المتعبين و رجال السلطة المرتشين. و الأطفال العاملين

المعدبين وإعلانات جذابة ومرهبة لجيبه الذي ترتديه الريح . وبائع خردوات اسود البشرة، يعتدل خلف اشيائه البسيطة تجاهه دكاكين ملابس، بنطلونات واحذية، معروضة على الواجهة، والرصيف متسخ بالدم والغبار والأوراق المهملة، الجزارون يعرضون رؤوس ثيران تقطر بالدم، والحلاق يقص شعر احدهم كشاة وشفتاه المتحركتان باستمرار . يمكن تكهن مايقولانه، من الاخير، لابد انه يتحدث عن الرصيف القذر، وعن ذلك الجزار الذي يضحك وينفخ بطنه وهو يهم بضرب قطعة لحم بساطوره الصدء، ، الماء الذي يسكبه الحلاق يختفي تحت بلاط الرصيف، يتخمر هناك في الاسفل حتى يصبح كالاسيد منتظرا مرور شخص ابله يضع قدمه على حافة البلاط يصعد الماء ليبلل سرواله وحذاءه. في تلك اللحظة كانت عدة غيوم تمد سيقانها نحو الأفق ثم تمضي الى نحو منفى وكان هناك شرطي يتكيء على عمود الانارة، فتيات يعبرن الزقاق يتسوقن المهم أنهم حديثات الحرية، طريقة لباسهن، كلامهن، ضحكاتهن، نظراتهن .. حتى الزحمة اللطيفة التي يفتعلنها كمغازلة خفيفة لبعضهم البعض كهبة نسيم عذب. كان

يرى البؤس في وجوه هؤلاء الأشقياء كل يوم، حتى بدا له واضحا و من الوهلة الأولى أنه لم يصل لدرجة الإكتفاء في أي شيء سوى القهر . لأنه فقد عربته التي عمل فيها بعدما طرده صاحب العربة العبدي في هذا اليوم الأول له في تجارة الملابس بعدما صرخ في وجهه مطولا بسبب بيعه للملابس بربح بسيط جدا. دون بيعها بسعر يفوق قيمتها. وأيضا منح بعض الملابس لساعي يمد يده، تعرفه الأزقة قبل الناس يلقبونه النابغة لحصوله على ماستر رياضيات. من صفاته أنه لا يزيل السماعات من أذنيه. فالموسيقى هي الشيء الوحيد الذي يخفف من وطأة المشاعر الثقيلة على نفسه المنكسرة ..تساعده على طرد ما ينزع من قلبه السكينة عند سماعها، كأكثر الوساوس رهبة و فظاعة في رأسه التي تنخره البطالة، وتطرد له فكرة الموت القريبة من تخيلاته.عاد فرحات إلى المنزل إلى حبيبته حليمة المرأة فائقة الجمال تبدو له من نظارتها وبشارة وجهها. على أن الحياة جميلة رغم كل الصعاب ،التي لطالما أراد إمتلاكها ،لطالما أراد أن يوغلها، ويسجنها في أعماقه ،فإذا بها تأتيه على هيئة ملاك بشري ،وعلى هيئة وجبة من نعيم الخلود، فعيناها كانتا محمية

لكل طائريحب الخضرة والتحليق فوق جبين السعادة. ولطالما أرادها أن تسكن روحه وتخيط جرحه ،فكانت له طبيبة تمنحه دواء السكينة والروح الناعمة ،يحارب بها جراتيم الأسى المعذية .ومصباحه الذي ينير حلكة القلب حتى قاعه الفارغ من أي تقب. كانت تحكي له متباهية بجمالها وشجاعتها، كيف أنها في صباها و بدون رحمة، رفضت جميع من تقدموا لخطبتها بطريقة تافهة، و كان يكفيها أن يتقدم الفتيان لها بهذه الطريقة لكي ترفضهم، لأنها كانت تبحث عن رجل وسيم متله،، امرأة شجاعة، فذلك لأنها تمردت على عادات عصرها التي كانت في الأسرة تختار الزوج محطمة قيودها . أخبرته في فخر و بلهفة العاشقة الشابة بأنه كان الرجل الأول الذي خفق له قلبها، و بعد عدة ايام من لقائنا لم أتعمد إغوائك لتتعلق بي، ثم أفتعل ميوعة النساء، ، أعلنت لك عن اهتمامي ورثت هذه الجرأة مبكرا ،وفي نظري مطمئنة على ما انت عليه ، راضية تماما عن شخصيتك التي تبعت عن الدفء والانبهار. وإرتسامات وجهك التي تتيرالألفة والسكينة ، مهووسة بتفاصيلك وبعمقك الغريب المبهم الذي لا حدود لغرابته ، انطوائيتك ، عزلتك غير

المبررة وصمتك الرهيب .. إن هذا الجانب من الغموض هو ما يشدني إليك . هو ما يستفزها لمعرفته أكثر . ولن تتم هذه المعرفة إلا بالتعمق والتواصل الباطني .. تريد تعريتك واكتشاف ما بداخلك .. ماذا يوجد خلف هذه الملامح الشاحبة .. أي رجل يسكن هذه الخرابة. بينما هي تحدثك برقة وترغمك على البوح ستدوس على ظلك وروحك دون أن تشعر بذلك .. أنت الآن شبه مخدر .. الوقوع في الحب أشبه بأخذ جرعة مخدر .. قد تقوم بكل الحماقات التي لم تتخيل يوما أنك ستقترفها ، ستجد نفسك تتحول لاإراديا إلى شخص لطالما كرهت أن تكونه .. ستشعر كأنك خدعت ! سيتجسد تمثال غباءك ويجلس بجانبك .. تتبادلان الشتائم لوقت طويل .. سيسيل لعاب سخافتك وستدرك أنك استنزفت جهدك للبوح .. لشخص أراد معرفة حقيقتك التي تخفيها عن الجميع ! فأعتزل ما يؤديه مما زاده التفكير أكثر في المرأة التي خطفت قلبه بجرأتها و قيدنه بجمالها . فإقترح عليها الخروج للإستمتاع بجلسة ليلية حميمة وهادئة على شرفة المنزل وهدأة وسكون تلك الليلة الصيفية. الا من بعض النسمات الباردة والمنعشة التي كانت تهب بين

الفينة والأخرى لتنحسر متلاشية. حاملة معها ما ينفسه من دخان سيجارته المحمل بزفرات آهات. ما يتوارد الى خاطرهِ من ذكريات الأمس واليوم . رغم هذا اليوم الذي يعيش فيه بسعادة غير آبه لما قد مضى ولا هياب لما قد يأتي ... ومع ذلك رغم كل هذه الواقعية التي يحياها لا يخلو الأمر من دغدغة بعض ذكريات الطفولة لخاطرهِ وانعاش ذاكرته . بين الفينة والأخرى خاصة عندما أكون مختليا مع حليمة بصحبة صديقه ومرافقه في مسيرته ومؤنسي في السراء والضراء نافسا مع دخانه زفرات آهات طربا، أو حسرة غضب !!ترك العنان لأفكارهِ تسرح على سجيتها تحت هذه الليلة القمراء فحلقت بالفضاء وبدات تتراقص على سجيتها بين الغيوم الداكنة وتتحين اللحظات لتطل من بينها على الفضاء الفسيح . وهناك تبدئ تتراءى له الذكريات الجميلة لقريته. وبفعل السكينة فقد أخذته الذكرى عميقا لتوغل به الذاكرة بعيدا جدا لأيام الطفولة السعيدة. كانت السعادة التي تحف به وهو صغير تبدأ ليلة الختان .اذ ينقلب فيها الليل الى نهار .. ويزداد السباق مع الزمن ..لانهاء كل مايلزم تهيئة لاستقبال يوم الختان

.. وكانت زوجة عمه تأخذ على عاتقها كل المهام التي تفرضها عليها مثل هذه المناسبة ... بدءا بشراء ملابس الختان . وما يناسب منها لإظهارهم بكامل الأناقة . والترتيب والشياكة !وطبعا هذا ماكان يسعدهم لأنه سيحصل على كل شيئ جديد بمثل هذه المناسبة !.وماعدا كان التدوير بالملابس على أشده من الكبير للصغير . وخلال هذه الفترة من الاختيار والشراء كان يسرق بعض الوقت بالذهاب الى حلاق القرية ليحجزدورامن كثرة المنتظرين وقد لا يأتيه الدور الا مع أذان الفجر .. بعد ان سبق له بظهيرة ذاك اليوم زيارته للحمام المغطى بالبلاستيك. وخرج منه كالبيضة المسلوقة ... وكانت زوجة عمه تتكفل ايضا التحضير لضيافات العيد . والتي كانت تعد موادها الاولية مسبقا حساء الذرى والحلوى.. ومهدت لانجازها ... .كانت تطبخ الخبزوكان يعمل على نقل صواني ماجهز منها للخبز ويعود بها والروائح الأخاذة تسبقه!!... لتعشش تلك الروائيح في أغلب بيوت القرية .يحضر من مآكل دسمة لهذه المناسبة .وأغلب بيوت سكان القرية كانوا يعدون لهذه

المناسبة شواء لحم وأباريق الشاي..والحلوى هي السائدة على موائد الجميع

الفصل الخامس

استهل الصباح،واستيقظت حليمة من نومها، على صياح ديكه، ونهيق حمار. كأنها معزوفة حيوانية، صارخة في عمق أدنيها،فلم تلمح فرحات على فراشه، بجانبها فاشتد خوفها، وهرعت تغطي جسمه،بالملابس المتناثرة على الأرض بسرعة، وخفة.مشت حافية الى باب المنزل فسطعت الشمس المائلة، في وجهها التي أظهرت عن رموش عينيها الواقفة كالسنابل ، المتموضعة فوق عينيها اللوزيتين ،لها أنف قصير، وقامة متوسطة الطول داخل لباس شفاف واقفة مذهولة تشاهد فرحات يتكئ على الباب بظهره، يتأمل العابرين اللذين يسيرون مكتفين بإلقاء نظرة غريبة، عابتة دون ابتسامة أوتحية. وسيارات ضخمة تصارع بعجلاتها الطريق. بصوتها النفات تكسر الهواء الى شظايا. تنعش وجوه المارة والمتسكعين ،التائهين في نكسات الحياة اللذين قدفتهم الدنيا الى شوارع الموت والنسيان..وأصوات أخرى لدراجات نارية تحدت صراخ يشبه شيخ مبحوح .وبين يديه سيجارة ترتمي في أحضان فمه الجاف، الذابل. يقبلها بحب فيلتهم دخانها وبعض منه يزفره سوادا من ثقب أنفه، بحرقة وقهر شديد...

تخرج حليمة عن صمتها قائلة:تعال لنتناول الفطور سويا ...

بعد وقت وجيزرد عليها،سآتي عما قريب.

يلحق بها ،يجلسان على كراسي تفرق بينهما طاولة خشبية سوداء ،في منتصفها شق وتتخللها مسامير صدئة متآكلة،وعلى المائدة أكواب من الشاي، إبريق ،وخبزدائري من الذرة صلب .في ذلك الجو الهادئ، يتذكر كل الذي مضى ورأسه منحني كأنه يتهالك. ويحتضر للحظة وفاة مستعيدا ذ كرياته من المهد حتى اللحد.تمر تلك الذكريات من مخيلته مشحونة، بموجات غضب مضغوطة حتى عيناه كانت مندفعة جاحظة. يسرح بها خيال جارح في اتجاه واحد كما لو اختار حلما محالا. يبحث فيه عن الحنين .وأصبح أصبع السبابة لا يتوقف عن الحركة بطقطقة على المائدة على شكل التشهد الأخير لصلاة .هناك حديت أبكم تشقق بداخله كجماد بقلبه البارد والفاتر دون حراك. والتصق بشريط الذكريات صدفة يجعله يشعر برغبة في الاختناق حتى يشفي غليله وعجزه كأنما أصبح ضعيفا مشلولا وبداخله رجل خائف .أما حليمة فهي جالسة على كرسي تقابله مباشرة كأنه اجتماع القمة العربية ،الكراسي فارغة ،والحاضرون جثث غائبون لا

حول ولا قوة لهم سوى الأناقة والشياكة والاستياء. تخرج من جيبها منديلا أزرق مربعا تمسح به فوهتي أنفها المتساكبة بالمخاط اللزج ولا يمكن إنكار جمالها . عيون شقية مليئة بوعود ساخنة، بشرة ناعمة بيضاء كصحراء نادرة تقتل العشاق من ظمأ العشق .ابتسامتها لا تعرف الإنكسار تلهب نيران الخيال ملامح وجهها مرسومة، لينه، منحنياتها بارزة، لا ضخمة ولا صغيرة . .تستجوبه بصوت منخفض رقيق. .أخبرني ما بك...؟لا تحرك ساكنا مشوش البال هل من شيء يقلقك أو يزعجك ؟

_هل أخبرك عن أطنان الدماء التي سكبتها أمي من أجل أرضنا أم أخبرك عن وجع وألم محياي بلا انتقام .دماءها تدفقت في عروقي وأمدتني بالبقاء ..فقاطعته أه..أه يا للمصيبة هل تم قتل والدتك؟من..من فعل ذلك بحقها؟

_الذنب الذي إرتكبته أمي هو أنها طالبت رفقة أبي بحقهما في الأرض المشتركة مع عمي فكان تمن العدالة قاسيا على أمي وأبي...فكفتي الميزان منها واحدة أغرقت بدماء أمي وأخرى سجنت أبي لموتها...والقاتل ينعم بالراحة والمال والرفاهية داخل قصره.ضاعت عشرون عاما الآن. من

عمري مهرولة، بلا حنان الأمومة ..حنان اغتيل منذ الصبايا بلا جرح، ولا خطايا لتتركني بصمت كما افترق الندى عن الورد،أريد رؤية أمي لتمسح عني عرق جبيني بيديها الناعمتين، وتطعمني الحلوى وتغني لي أغنية النوم...انتفض الأسى من عينيه دمعا.

ستذهبين معي حالا لرؤية والدي ...فالشوق يبعثرني تجاهه، دعيني أرى تقاسيم وجهه الذي خيم عليه الحزن وأتحسس يده التي أطعمتني ..حاضر سأدهب برفقتك هيا بنا ...

سلك فرحات رفقة حليمة شارع السويقة، الا أن وصلا الا زنقة أبو علاء فتوقفا أمام مسجد مولاي سليمان، حيت لمح أباه جالسا في مدخل المسجد يمد يده عسى أن يجد قلبا رحيما,صار نحيفا واللحية تغطي تضاريس وجهه البريئة وشفتاه مائلتان تنزل وتصعد على قوقعة حلزونية، وعلى جبينه هالة سوداء من أتر السجود متموضعة فوق خطوط عريضة في جبهته يطبعها ألف انشقاق .يرتدي هنداما أبيض يصل حتى الساق، تطبعه ندوب تراب الشارع. وفي رجليه نعل من الجلد أطرافه ملتصقة بمسامير.يمتطي غصنا يابسا، يتكئ عليه ينحني رأسه على صدره مثلما

يعلوا على جرح فوق المئاسي، وتغازله ريح نتنة لقدارة البشروتتطاير مع الغبار.كانت شفتاه منشقة كباق ربوع الوطن، ويصاحب الصمت لأن الحظ هجره أيام السجن دون سابق اندار. عاد غريبا على نفسه كغرابة معادلة فيزيائية على تلميد كسول .انكسار أخر في قلب ابنه الهش فيبادل حليمة بنظرة خفيفة محملة بيأس موشوم بنكهة البكاء على الذي أنهكه الخدلان من الأحبة ..اتجه نحوه بخطوات مستغرقا شوطا حزينا لتطئ رجله الأرض كأن به خلالا في قدمه... فيمسك بيد أبيه ويقبلها مثنى ..قائلا يا أبي لن تمد يدك طلبا للمال بعد الأن .أنا ابنك فرحات ...فتنكمش عيون أحمد متلما تنكمش جذور النبات، وتطرح سيلا من الدموع تتقطر بشحنة سالبة، بعدما تكاتفت فتنغرس بالأرض ...ابني فرحات لا أصدق عيناي فيجدبهم مغناطيس الحب والدم ويعانقه في لحظة كاد قلبه يدق له من الاحتضار. ويغني الغبار أناشيد شمسهم فوق رؤوسهم ولا ينشد الاعتدار ...ظل فرحات يردد على مسامع أبيه لا ذنب لك أنت ضحية خطأ ؛لأشخاص سلبوا حريتك تم يقول "الماشية لا يقتلها الا دمها بعدما ينهكها الجري أو المطاردة " هيا نعد للمنزل وكاد لسانه يفلت فيؤنب أباه..ولكنه

يتدارك نفسه..وحده يتمثل فيه كل خواطر الماضي العزيز,وكل صوره ،أطيافه ورؤاه. وكانت مرارة الذكرى تطغى على حلاوتها المترقرقة بجوانحه. أوصل والده الى المنزل وأتجه مسرعا نحو الباب فتبعته حليمة مسرعة قائلة أعلم ما يدور في رأسك. ولكن لن يفيدك الانتقام والتضحية العمياء، في أي شيء'فلن تجني غير المأسي .أنت انسان طيب انعل الشيطان واخزيه فان بعد العسر يسرا. وفكر بأبيك فأنت أغلى ما يملك .فزفر فرحات بتأفف. وغادر المنزل غير مهتم بنصائحها ..

الفصل السادس

دار حولها في حذر، حيث كان قلبه يقفز قفزة شديدة بين ضلوعه ،وبقى فترة طويلة يدق دقا متواصلا عنيفا ‘ويده ترتجف..وانه ليرتعش فهي أول خطوة تجاه أخد الأرواح,يهتف بسكينه الحاد بين يديه بالجرأة والشجاعة في وجه الظلام المستبد. ظل الزحمة الخاوية، والضيق المحطم للأعصابن والشتائم، التي تنفجر بداخله وتتناحر والأشجار تصارع الريح، التي تمشط أواراقها شمالا. يصعد من البوابة وكانت هذه اللحظة أقسى على نفسه من كل لحظة سواها. أحس أنه يلتقط أنفاسه، وأنه في مأمن عن جاذبية ضوء القمر.وصل الى الدرج. تم صار يتقوس في انحناء كالحرباء واختفى ريق فمه. أنار مصباحه دو البطارية الضعيفة الاشعاع. فأحس بأصوات تدور في أدنيه وتدغدغه ...الايقاع المجنون يزأر، ويعض الريح هنا وأمامه .ولما وصل لطابق التاني وتبقى له الطابق التالت ازداد الصوت صخبا ،وضحكات رقيقة ..سأجعل ضحكتك بكاء وأمنحك لقب قتيل بعدما تنصهر أحاسيسك وتترعد عظامك الهشة،المتسوسة، ويرتجف قلبك العفن...فوصل الى باب الغرفة التي تحاذيها نافذة كبيرة تطل على الفناء

الخارجي. فلمح مدخل البوابة، يفتح وتدخل سيارة بيضاء وترافقها سياراتان سوداويتين. وصارت ساحة الفناء مضاءة. فأحس بأنه محاصر فنزل مسرعا محدثا طرقات على الأدراج، حتى وصل الباب وحدق بخفة في كل الاتجاهات المضاءة. وتسلل الى الاختباء وراء شجرة وهو يراقب خروج الحراس من السيارتان السوداويتين. ليفتحا أبواب السيارة البيضاء التي ينزل منها شخصان محنكان تبدوا على سماهم الترف والغنى.أما منزل عمر فيضاء بشكل كامل في لحظة وجيزة. يطل عمر من باب المنزل في لباس النوم يسبقه بطنه البرميلي في المقدمة. وخادمه الذي ألمح وجهه لأول مرة يرتدي بذلة نادل وتنوره. فيلتقيان في وقفة كشموخ أهرامات مصر. ويتصافحا بحرارة فيقول عمر لخادمه أحضر لنا الكراسي، والمائدات. فانه ليوم جميل أن أستقبل القاضي الكبير المعطاوي. وصديقي البصراوي الوالي السابق هههه

يقول البصراوي هل هدا خادمك الجديد يبدوا مطيعا

-أجل انه مطيع حاصل على اجازة تخصص جغرافيا ودبلوم تجارة وينظف المراحيض ويغسل الأواني هههههه

-هههه يا عمركيف حالك مع الشغل والتجارة؟

الأمور تسيرعلى ما يرام منتجاتنا تروج في أي مكان وعليها اقبال من كافة المدمنين والمدخنين والأمريرجع لسيادتكم يا س البصراوي توفرلنا الأمن ونصيبك يصل لك في كل عملية..بسببك صارالمخزن يلقي لي التحية العسكرية عندما أركب في سيارتك المملوئة بالحشيش والأقراص المهلوسة ..أصبح بامكاننا التبول على من نريد فيقولون خوفا انه مطروبركة ..ما رأيك أن نوسع نفوذنا فالمال يجلب المال ولو من قاع البئر.فيتدخل القاضي قائلا بعينيه الصارمة، المرعبة، ولحيته السوداء، الطويلة. أنا أغطي على كل جرائمكم كجريمة قتل الصحفي الذي كتب عنك مقالا يذكرفيه تعاطيك لدعارة وعمالك الذين رفضوا العمل بعدما تعلموا أسرارنا فقمت بتصفيتهم .والأن من يخون العهد الذي بيننا يقرأ على نفسه الفاتحة ويفكرفي طقوس العزاء هههههه

فقربهم نتانة شر، ومقت.وفي ملامحهم لبث الخبث سما قاتلا .يرتشفون من أكواب القهوى والخمرنشوة، تم يضعونها فوق المائدة. بعدما يهابونها لمسات حانية ...لا شيئ يمرعبتا حتى أصغرتعثراتك..فلا القريب ملام ولا

بالبعيد المنسي .وتلك الدقائق تتاقل وهو يمسي وراء جدعها . في عناق مشؤوم تطبعه أذيال الخيبة وبعض الأمنيات المحترقة والمأرقة وملامحه الأليفة البريئة انطوت وظلمة الليل في وجنتيه تناحرت وقبل انتهاء هدا الحديث الملتوي يحاول فرحات الوصول لسور الذي اجتازه في الدخول فيراه الحارس ويصرخ بصوت طويل مدوي "جاسوس" هاه هاه هاه فيلاحقه عمر بسرعة بخطى أرنب على أطراف أصابعه. لكنه لم يدركه، كان يصرخ لقد عرفتك وسأحرمك من تنفس الأكسجين قريبا. تم عاد لتهدئة الوضع مع ضيوفه اللذين ارتاب هم الفزع والخوف من تفشي أسرارهم الشريرة. قائلا لقد هرب الجبان انه فرحات ابن عمي. لا تخافا سأهتم به ولكن كانت وجوهم حمراء ترتجف . عاد يركض مندفعا بوجهه الذي يلفه ظلام، وليالي الوطن السوداء، الهوجاء التي تشعره بمرارة الهزيمة. في كل خطوة يخطوها وهربه من معركة الانتقام البائسة. حيت كلما تجاوز شارعا أو حي الا والتفت في كل الاتجاهات خشية أن يكون مراقبا أو ملاحقا. في هذه اللحظة، كانت المدينة تعيش كوابيس الرعب وضحكاتها مسجونة، مستسلمة لقطاع الطرق، اللذين يختفون خلف

قناع .يمر أمام حانات القمار التي يسكنها الشيطان والمخمورين .الأرصفة أمامها يملأها القيأ، فتأوه من هذه الرائحة العفنة واضعا يده على أنفه، ونطق بلعنة من حلقه جهرة. حتى أفزعه صوت مواء قطة، تستوطن القمامة فقرأ بعض الأيات من القرأن الكري م. مع كل حرف قرأني يعتصر قلبه من قسوة الخوف والحزن المسافر في دمه.

وهو يردد في سريرته النفسية بشجب وإستنكار إنها قمة الهزل أن الأمور لا تحدث في حياتي بالطريقة التي أرغب بها . أظل أتسلح بالأمل لتحقيق النصر وبلوغ الذروة . أثابر من أجل الوصول إلى الحلم لأنال المبتغى والرضى . أبدل مجهودا كبير لمحاولة عيش . من خلال مسيرتي الحياتية . أكتشف بعد كل حين أن طريقي محجوب . عتمة قاتمة تكسو أطرافه . لم تترك حتى نزر نور كوصل أتعلق به للسير قدما . ليكون أملي الوحيد كي أنجح للوصول إلى النهاية وإكتساب الخلاص . أكابد في وسط هذا الظلام عند كل خطوة إلى الأمام بشق الأنفس . وجهد معنوي طائل يستنفد طاقتي . أكاد أختنق في كل مرة بالضيق الذي يتملكني . والحيرة التي تصيبني . كيف لا أرتاب والوحشة تتربص بي في كل مكان .

أخطو منحني الرأس بإرتجالية نحو كل الجوانب .. وأسلك كل السبل . أسير كالأبله لا تهمني العواقب ولا المشقات وكل عزمي هو أن أواصل التقدم نحو المجهول .. وإلى اللامتوقع . مهما أوتيت من لا شيء . أقاوم الضعف والإستسلام بعينين معتصمتين ومعنويات ضعيفة جدا . رغم ثقلي بآلام الدهر وأوجاع الأمس . رغم الفشل الذي ينتابني . أصر على التحدي بكبرياء مجروح وأطراف متقطعة .مهما أبدعت في أساليب الهجوم وفنون الحيطة .في كل لحظة أنال من القسوة والشقاء والألم ما شاء القدر أن أنال . في كل مرة أتلقى كل هذا العناء بإبتسامة . أدير ضهري وأترك النرجس المعطر خلفي وأنثر الحب قبل الغضب ..لا أبالي إن كانت آفاقي ضيقة .. وشعاع آمالي إنطفئت . ومازلت في خضم هذا الضياع الموجع والحيرة الهالكة سأشق طريق الأحدات نحو المجد رغم الشرود والإنكباب . فالحياة بالنسبة لي ملحمة يستوجب خوضها في محراب الزمن .ولن يناسبني أن أتركها إلا بشهادة . ولا أقبل أكون لها أسيرا .فأنا قوي بما فيه الكفاية لست أبالغ في الوصف والروي . فالحياة في الحقيقة كابوس لا أرى فيها إلا الظلام ولو لم يكن

العيش قراري .كان ليكون رغبة مجسدة في مشهد حزين أعيشه بقلب مكسور ، لكن أسير بفرط اللهفة والرغبة المحجمة للخيال . فأنا عندما أتألم أنفض في وجه الحياة . أستسقي ريقي من قلب المعانات . وأمزق حاجز النفاق .وأبني حلمي وسط السراب .وأشيد أبراجي العاجية من حبات الرمال في عمق الصحاري .وأمزق الموج فوق البحور . وأغني سمفونية الإنتقام بصوت غجري .عندما أغضب أفتك وأفترس . وأنثر الشرر من عيني . وأنزف دما من قلبي . ولا أرجع إلى صوابي وملكية نفسي إلا على عرش القلوب المذهبة كحبيبتي حليمة . وفي هذه المنزلة بالذات يجتاحني هديان أهداب الحياة . وأقف صامدا في وجه طوفان الظلام معلنا ثورة الفرح كغاية من غايات السعادة .وعند كل تنكيل وسقوط .أستمر القول في سريرة نفسي . فيا شر الحياة فرغم كل المآسي والآلام. ورغم كل العترات والإنكسارات . فأنا الغريب لا صرخة لي.

فبعدما سلك شارع السويقة. وصل أمام منزل حليمة بعدما كانت كل الطرق تصب في الظلام الشديد. والساعة تشير الى الواحدة مساء .فاسترجع أنفاسه وطرق الباب ففتحت حليمة الباب وهي تناوره بنظرة جاحظة. وصرخت في وجهه تلومه وتوبخه قائلة أين كنت غائبا حتى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟ ألا تفكر في أبيك الذي أصبح طريح الفراش ؟ الى متى سأعيلك ....؟

فينظر جانبا معاكسا وجهها فهو لا يستطيع أن يرى الحزن بعينيها أو يكذب عليها،يعاني من هذه اللحظة وتزداد سرعة الدماء المسافرة في عروقه. فتزداد معها ضربات قلبه وتلهث أنفاسه، ويضع يده على فكه الأسفل ورأسه يترنح فيخبرها قائلا:لا تغضبي الى هدا الحد أنا رجل ..فقاطعته ..أنت جبان ولا تقدر على المسؤولية ..أحس أن الحوار بينهما سيقودهما لخصام، وسيغضب منه أبيه فهمّ بالدخول الى الغرفة حيت ينام مع حبيبة قلبه حليمة الغاضبة منه. تم ارتمى في سريره كجتة أنهكها التعب وتكومّ كالعصفور الخائف، في عشه بغطاء صوفي. وهو يفرك شعر رِأسه،ليزيل أثار الصداع ويغمض عينيه بعدما تكالب عليه النوم فيتنفس

بهدوء محاولا ارخاء عضلاته وأعصابه المتعبة، لكن معدته تطلب النجدة. تحتضر تحدثه عن قطعه خبز الذرى، التي تناولها خلال اليوم كاملا في الصباح .فتأتي حليمة لتنام بجانبه فتحتضنها وسادتها لتلتقط دموعها التي تفتقد لحبه،حنانه والشكوك تنقر في رأسها. هل وجد حبيبة غيري؟ لماذا أصبح يهملني؟

لماذا لا يغمرني كل مساء ولو بضحكة كاذبة أو مزحة تجعلني أبتسم. فهذا شيء أهون عليك فضمد جراحك وتعال ننسج قصة حبنا..أحبك أما لك أن تفعل؟ يلفها ارهاق شديد لم تلتقي جفاناها خلال الليل ..ففرحات ظل نائما بجانبها يتقلب يمنة وشمالا في حلم غريب ومؤرق. داخل جسده المتقل بجراح الانتقام ويلفظ به وهي تسمع بقلب يحترق ..

الفصل السابع

استيقظ فرحات على أذان الفجر. وهو يسمع صوتا يتأحح ويتألم. فرمى عنه الغطاء، وأضاء المصباح وتوقف بجانب أقدام ابيه الذي كان يتصبب عرقا .عيناه تختلج بسرعة ودموع تهبط على وجهه متعبة، ساخنة. فتحسس يداه ورأسه الساخن الذي يغلي على درجات حرارة مرتفعة. فسحب قميصا وصاريضعه في اناء ماء، مملوء. يمسح به وجهه وقدماه ليخفف من حرارته . ظل أباه مستلقيا يردد الشهادة، مستسلما للقاء الموت الذي كان يعصف به مرارا وتكرارداخل السجن من تعذيب وقهر من أجل تعديل السلوك. وكان تلقى عروضا داخل السجن بأن تخفف عنه العقوبة الى بضع سنوات بمقابل مادي . لكنه رفض ورضى بالقضاء والقدر.فقضاء البشر تغيره الدراهم والزبونية. أما قضاء الله فبيد الله في هذه اللحظة قال فرحات، يا أبي سامحني على ضعفي وغيابي. استجمع قواك لا تستسلم للمرض، فهو سيعبروتعود كما كنت شابا وتكون سندي في الحياة وترشدني الى الصواب. فلا تخف هذا امتحان لك من الله أليس كذلك ؟

أنت لم تفعل شيئا يؤدني فعلى ماذا أسامحك؟فكل ذرة من جسدي تنادي بأبوتك وشهامتك..

استمر الحديث بينهم حتى الثامنة صباحا. فأقنعه بأنه سيأخذه للمستشفى بعد إلحاح ابنه المتواصل. بأن يأخذه من أجل فحصه وتشخيص المرض، الذي يعاني منه. ألبسه ماطاب من الثياب وناوله النبوت. استقل سيارة الأجرة من باب درج المنزل بعدما أجرى اتصالات من أجل الحصول على سيارة الاسعاف. التي اخبروه أنهم في الخدمة وعليه انتظار ساعة .

وصل الى المستشفى. ويتكأ على كتفه أباه المنهك. المتصارعة أنفاسه. كاد يسقط لكن فرحات تمالكه وحمله في اندفاع نحو داخل المستشفى. سأل أحد السكرتيرات أبي مريض يحتاج لرؤية الطبيب فحرارته مرتفعة، ولا يجوز بقاءه في مقعد الانتظار. جحظت فيه بعينيها هل أنا الدواء لأبيك؟ تصف لي حالته خد لك رقم انتظار، واجلس مع المرضى حتى يحين دورك فناولته ورقة مكتوب عليها مئة وأربعون ...هل سأنتظر مئة وأربعون مريضا وبعدها يتم معالجة أبي ما هذا الغباء؟ الأسبقية للحالات

المستعجلة يا سيدتي ودعا معها دعاء عظيما من القلب ممزوجا بنظرات عاطفية.

-لقد أغضبتني، الله ينعلها ساعة. أحذرك التزم الصمت والهدوء. وإلا سأطردك خارج المستشفى إياك تم إياك العبث معي. حراس المستشفى بحركة من إصبعي الأصغر تجد نفسك خلف الباب .تملكه غضب شديد أسره بداخله وكتم سربا من الكلمات خاف أن ينطق بها فتجعل السكرتيرة تغضب وتنفي أباه بلا علاج. فجلس بجوار أبيه يأنسه ويعض على أصابعه. والمرضى كحلقات يشكون مرضهم بعضا لبعض. وهو ينظر لسكرتيرة البدينة وهي تسجل الوافدين وبعضهم يمنحونها أوراق نقدية فيدخلون مباشرة عند الطبيب. طال انتظاره وتلقى الطبيب مكالمة طارئة. فخرج مسرعا الى سيارته دات الدفع الرباعي تاركا المرضى لسكرتيرة تلقي عليهم خطابا قائلة اذهبوا حتى الغد أو أعطيكم موعدا أخر. فالطبيب الذي سيفحصكم ذهب فلا حاجة لتزدحموا ..لما سمع هذه الكلمات تجمد كل جسده .أخذ أباه الى صيدلية الأمل واشترى له نصف الدواء بعدما عجز عن دفع ثمنه ..أصبح الأب طريح الفراش وحيدا يصارع المرض مابين

الموت والحياة. يتحسس صوت الفئران والصراصير التي تبحت عن قطعة خبز أو حبة زرع .والعبوسة شقت وجهه وصاريلقي كل لحظة نظرة تحسر على ابنه الذي يلتصق ظهره بالجدار ويمده بين تارة وأخرى كوب ماء يرتشف منه بصعوبة بالغة .وحليمة صارت تغيب عن المنزل طويلا تأتي بعض المرات في الأسبوع. مما أغضب فرحات وأجج في قلبهى صيفا حار فقرر أن يناقش أباه في شأن رغبته الزواج منها فأخبره بنظرة عميقة وخجولة تهرب معها أشفاره نحو الأسفل في كل كلمة صدرت عن فوهه

- يا أبي اني أريد الزواج بحليمة فهي امرءة دات قلب أبيض فقد فتحت لنا أبواب منزلها بصدررحب ولم نجد فيها الا خيرا

- يا بني فكرة رائعة ولكن لا داعي لتتسرع في الحكم عليها. فمن تسرع في الحكم على الاخرين مات في أول اختبار. فما يخفى يكون أعظم لا ندركه ببساطة فكل ما تراه ليس حقيقيا يجب أن تبحت في ماضيها وأسرارها الدفينة فلا يغرنك الجمال ..وبالأحرى هل لها عائلة ؟

-بلى كانت تمتلك عائلة قروية تتكون من تلاثة أفراد، أبوها كبورالحداد، وأمها رقية لكن مات أبيها الذي كان ينفق عليهم ويحرصهم من كل شر فأصبحت أمها مجنونة ومسعورة لبكائها وحزنها المتواصل على فقدان زوجه.ا وكدلك إهانة ابناء القرية لها ولابنتها فقال السكان بأنها هاجرت وتركت ابنتها وحيدة وأخرون ذكروا بأنها رمت بنفسها في بئر مهجور فقررت حليمة بيع المنزل والاستقرار بالمدينة لتنسى الماضي البشع..

- قدرالله ما شاء فعل يابني كلنا ميتون وكلنا سنفوز بقطعة قماش أو كفن المهم تكلم معها في الموضوع ويبقى القرارلها . حاضر أبي وقبع يسرح في خيال في الأفق بلا حركة كصحراء خالية، من التنفس تخنقه الأسئلة. هل ستوافق حليمة على الزواج بي ؟ربما ستوافق وسأكون سعيدا ستتلون حياتي بالفرح .أقدسها كالشمس وأعيش في ضوئها. سأرقص وأشدوا وأعود صبيا يلعب ،يحب الحياة فلا دواء للعشق إلا بتحقق العشق ...أه مادا لو رفضت وأنا أخاطبها وأستنجدها لا لا

أستغفر الله العظيم المهم قل لها كلاما بلغة العشاق مثل أشعار العشق لعنترة وقيس والمتنبي فهم تغنوا بالحب ..

الفصل الثامن

أحس بأنه سمع صوتا ،شم عطرا يفوح وينبعث من الغرفة التي يقطن فيها مع حليمة. فنهض مسرعا ليكتشف ويرى أناقتها التي قد تسقط جيشا كاملا. وعيونها البحر الذي لا يغيب عنها ضياء الجمال.فلما دخل الغرفة لم يجد لها أثر لم تعد فهدأت أنفاسه وتباطأت دقات قلبه، إنكمش في دعر وخيبة اهتز قلبه بأنين لا يعلوا صوت زفيره. يقف فوق محطة انتظارها ربما ينتظر قدومها هي روح جديدة له. لم يألف غيابها أصبح منزويا على فراشه صامت مات بداخله الاحساس غابت عنه البسمة وحاصرها جدار الأسنان. مشلول بلا حركة بداخله دمعة استياء ،اشتياق ،تنهيدات الحسرة ،انتظار مشؤوم كالدهر،وكجهنم في عدابها ..

اصبح يفكر في طريقة استرجاعها ا يستنجدها كعبد ام عاشق يتغزل بها يقنعها بصدق قلبه ؟ ام قلبه تفتت ما عاد يعرف معنى الحب فقد اصبح عاشقا للخمر الذي يذهب عقله كالمجنون وفي منتصف الليل يخاطب القبور ويسألها عن الغياب حليمة قائلا ياموتى لما صامتون وحبيبتي لم تعدمند خمسة عشر يوما. اخبروني أحليمة ماتت بينكم وابتلعتها القبور

أم وجدت حبيبا يملك المال وعصا السلطة. رجل مثلي لا تخيفه السلطة لما ينفد صبره وتصبح حياته عبتا .

بعد مرورواحد وعشرون يوما عادت حليمة الى منزلها في سيارة سوداء. صباح الاحد يقودها حارسها الشخصي، مرتدية ملابس فاخرة. والعطر يستعمرأحياءهم المنسية. تنتعش معه الأنفاس المظطربة،وتترجل من السيارة متوجهة صوب الباب في خطى تابثة والريح تتصارع لتأخد نصيبا من شعرها الأسود ..تطرق الباب على عجل طرقات صاخبة يحدثها خاتمها الذهبي مع التقائه مع قسوة الخشب في صرخة "طق طق"فتسمع صوتا يقول أنا قادم ونعله يحدث كشطا. حتى يفتح الباب ويقف في ذهول لا يصدق ما يرى وقلبه يدق ويخفق. تم يمسح عينيه من العمش ويمد لها يديه ويصافحها بحرارة ويبتسم بلا نهاية..دخلت الى المنزل وطلبت من حارسها البقاء خارجا وفرحات يسرع في إحضاركرسي خشبي لها وجلس بجانبها وهو يردد ألف مرحبا بك هذا منزلك

-بارك الله فيك كيف حالك أنت؟

-أنا كما تشاهدين ..وأنت ما سبب غيابك عني؟ومن هذا الشخص الذي يرافقك ذو عيون الطبل؟ومن أين حصلت على هذه السيارة؟

تجيبه بهدوء وهي تتمعن بجفنيها المتدليتين صوب الأرض ،لقد وجدت شخصا يحبني ويهبني كل ما أريد فهو غني وهذه السيارة هدية منه لحبنا وسنتزوج قريبا...

إحمر وجهه كاد يبكي، صفع خده بقوة تم نظر لها بتحسر شديد قائلا :ماذا قلت حبكم.. ستتزوجون قريبا ألم يكفيك حبي أنا؟

-لا أستطيع العيش معك فأنت فقير، تبحث عن الإنتقام ولا تهتم بي.

يقاطعها بلطف شديد. سأعمل بجد وسأهتم بك وأهبك حياتي وقلبي فأنت سكنت وجداني وكل يوم غبت فيه، فقدت الحياة وزادت جراحي.

فترد عليه أيضا إنتهى ما بيننا. ولما سأتزوج لا أريد رؤيتك هنا في بيتي وأمهلك سبعة أيام لتترك المنزل ..لكنه لم يستسلم لكبريائه حاول أن يمسك يدها ليخبرها عن صدق مشاعره، فأخفت يديها في جانب أضلاعها، فتدلى منحنيا عند قدميها كالعبد متوسلا إياها بأن تبقى معه.

تمايلت في إندفاع نحو الخلف، فدفعته برجلها حتى إرتطمت أصابع قدمها بأسنانه في إصطكاك. تم تخرج مسرعة لتعود إلى حبيبها الغني ..لكن فرحات ظل يتحسس بيديه ويرى نفسه ككلب أو شماتة تلقى ضربة من إمرءة. فقال بصوت مدوي أرعب معه والده المنزوي في البيت المجاور يا خائنة، سأقطع أقدامك العفنة وأرمي بها للكلاب ...ماتت على فمه إبتسامة عاشق وأختفت شراسته تحت قلب هش. لا حدود لإنهياراته بعدما دخلت له إمرأة لا تعرف الحب فقطعته تم طحنته وعصرته.لكنه تمالك نفسه ووقف على قدميه من هول الصدمة تم إتجه نحو الخارج، حتى إستقرت قدماه بالباب ونظر إلى كبد السماء وفي رأسه ألف سؤال. لماذا فعلت بي كل هذا ؟ أظن أن الغدار عمر قد اشترى مني حبيبتي لينتقم مني سأكتشف ذلك أهذا كابوس أو حلم يتجدد في يقظتي؟ يالك من خبيثة سأحذفك من التاريخ. وأغرقك في حممي البركانية لتتذوقي الجحيم. تم عاد للغرفة إستلبت عذوبته داخل الغرفة التي تهمهم في خياله وأنفاسه شرهة كأنها صرخة إحتفظت ببصمتها المستتيرة في جوفه المتناحر.يحترق شوقا لفك هذا اللغز المحير باحتا عن المفتاح الذي تركع له كل الأبواب الموصدة

وحتى المغلفة بقناع مشفررغم أنه لا زال لا يصدق ما جرى أمام ناظريه اللذان تعارك فيهما الدمع حتى الإنكسار كلامها القاسي الموجه له لم يفارق عقله المتيم ...فقد تذكر أحاديثها كجزء من قلبه يغلي دون أن يخمد صوت صرخاتها فيوجهه الكئيب شعر أنه ظل الطريق إلى قلبها ولا يدرك أين المفر؟ يجتر ذكريات اللقاء الأول بسمة عريضة،تعيد الحياة للخلايا الميتة، عيون تشع من النور كالبرق، ظفائرها السوداء، الناعمة وتنوراتها، الطويلة دات الألوان البراقة ... أما الأن سيصوم عن حبها ويتذوق عطش صوتها، وجوع كلماتها بعدما رحلت بغرورها .لا تستسلم فالحب شقاء لا شفاء منه. أما الإبتعاد فيولد لك موجات تسحق قلبك ويزداد طرقا كطبول الحرب. فسقف خيباتك ارتفع عاليا وربما يهوى قريبا. إضحك ليس لك ما تخسره فقط افعل ما تبرع فيه حين يداهمك الوقت، والصمت ارقص رقصة دائرية كالزمن الذي يتشظى في كل مكان. ولما يعود العواء البشري الى كسر مزاجك كما لو تنهال عليك الكلمات الخبيثة من سوط ابن عمك الجلاد. اصبحت خرقة بشرية صنعت من الخيبة. وصوت عوائك على فقدان حليمة يشبه نحيب امرءة فلا تكن ضد

نفسك. لا تخسر الفرصة، دع نفسك تستنشق عبير الوطن الخالي من عرق الفقراء... بعيدا عن عزلتك رغم ان الأخريين ضباب يندثرون في حالة شروقك..تم يخاطب نفسه مجددا كنت لا أؤمن ان لا وجود لشيئ اسمه حب في هذا العالم الا فالقصص و الروايات التي كان يسمع بها .. حتى كتب له القدر ان يلتقي بتلك البيضاء الشقية الخائنة الملعونة .. تلك الروح التي وجدت نفسي فيها ذالك الوجه الملائكي الذي يخفي قبحا شيطانيا فقد سكنت روحه دون منازع . تخدر بخمر عينيها و غرق في بحور هواها الى ان حدث ذالك الأسى الرهيب في بطين قلبه بخيانة حادة.. توقف الزمن بالنسبة له حينها و تجمد كل شيء من حوله .. صدمه حقا هول المشهد و توقف عقله عن التفكير ..لا يدري ما حصل له ..احس بأن حياته انتهت حينها ..فأشعل تلك السجائر المحشوة بتتابع متدوقا بنهم دون توقف حتى تخدر كليا كي ينسى تلك الحشوة والأنتى البائسة ..و في قمة تلك النشوة العابرة تيقن أنه الخاسر الأكبر والوحيد بكل المقايس وقال في نفسه ذالك المثل الجميل الذي لطالما استعمله في حياته "الخير في الباقيات الصالحات".. كم هم مغفلون

لقد أطلقوا رصاص على قلبي وما زلت حيا مجموعة من الحمقى لا يعرفون أن قلبي مليء بالثقوب .. حقا اوجعتني الامر ..احسست بكمية الوجع التي تعصر صدري. حين تلود الدمعة من مسكنها .. لتنتهي على خد الكبرياء . وتعلن الصرخة على إعاقتها في طيات السكون فتبيد عاصفة المشاعر الجياشة على أحبال القلب الظمئ ويصبح الوقت أداة تعديب من الإنتظار. لقصة غابت فيها الأميرة بسبب مغامرة غامضة . بعدما ظل عاشقها يترقب حضورها . لتمنحه ترياق الحب .. وتفشل كل محاولات تعقيم جراحه . حين يبحت الفارس عن أرض معركة شهدت نجاته وخيانة ضده أخر مرة . يعتزل فيها الحب والسلم . عندها يتيه الضوء في الظلام . وتجر الخيبة أذيالها فتنسى المأسي حبن تصبح الأفكار أكبر من الملموس .. والأيام أكبر من السنين .. حينها سيرحل فرحات الغريب لأن الحياة قصيرة أغلقت ستائرها في وجهه أكثر من مرة وتسببت بمدبحة دموية في حياته . فقد صادف الكتير من الأشخاص . منهم من كان تعلبا يلتحف ثوب المكر والخديعة كشياطين أصابتهم لعنة الحياة . ومنهم من كان طيبا لتغيره الحياة إلى وحش مفترس . ومن الصدف

القليلة أن يفتحوا أفئدتهم على نور يسطع من بعيد . حاملا معه جميع أحاسيس السعادة الغائبة منذ زمن بعيد.

. وخرق نذاء أبيه الذي يشبه الإستغاتة، العاجلة.

-يافرحات يابني فسارع خطاه صوب بيت أبيه المنزوي قرب الجدار الذي يحن اليه مستلقي على فراش بالي ووسادة بيضاء تحمل رأسه حيت مضى على قبوعه داخل الغرفة عشرة ايام. طلب منه إحضار المصحف الذي يبعد عنه أمتار قليلة. صار يقلب صفحاته وأغمض عينيه يتأمل في شيئ يسبح في مخيلته تم يسأله.

-يا فرحات كيف حال الأمور بالخارج؟

-هههه لم يتغير شيئا ولم يدفع اللصوص والخونة تمن مكرهم

-سيحاسبهم الله في الأخرة وهو أدرى بعباده

فنطق فرحات بحدة:

هل محاسبتهم في الدنيا خطأ وهل العدالة عمياء تخدمهم ولا تعاقبهم شر عقاب..

-فتنهد في تأفف لا تتحدت في السياسة فهؤلاء اللصوص والأوغاد يحميهم القانون ،فلا تشتري لنفسك فتيل نار تحرقك فكن حكيما ...

-الإنقضاض في الوقت المناسب يقتل الأوغاد كعمر..

فقاطعه بتحسر:

أصمت تخلص من أفكارك الخبيتة. أنت لست مجرما لكن كان وقع إسم الوغد والحتالة عمر على مسمعه كوقع قطعة تلج على جسده. فطلب منه أن يذهب فورا إلى إحضار الشيخ أحمد لأنه يود رؤيته ومحادتته في أمر ما.

الفصل التاسع

رفع عينه الي السماء .ووجهه تلفحه الرياح الحارة. مشاهدا قرص الشمس. وهو يتسلق السماء، وراسه تتقاسمه هموم البطن والوطن والامة. بدا الشارع فارغا الا من اطفال يتجهون الي المدارس وهم . يحملون هواتف ذكية ويتحدثون عن اغاني جديدة .وبعض العمال اليدويين الباحثين عن لقمة عيش متمنعة في زمن صعب. ونسوة وضعن المساحيق ليخدعن المغفلين. وبعض القطط والكلاب تجوب بكل حرية غير مكترتة لإنشغالات البشر التافهة. باحتة عن الطعام. وأخرون استيد بهم التحرش فاخذو يطاردن كل أنثى مثيرة. وغسال سيارات وبائعات الوجبات الخفيفة. وسائقي التاكسي يتسارعون على خطف بعض الدراهم من الركاب. لكن فرحات لا يملك سوى قدماه ليسير عليهما. إجتاز شارع السويقة، الذي لا يخلوا من المارة. وصراخ ساكنتها متخطيا كل الأرصفة، الطرقات المكسورة، كأنها كائن صلب، ممدود على حافة الرجاء. تستغيث وتحمل ليل نهار بطش مروجي المخدرات.ولعمر مع أعوانه النصيب الأكبر. شق كل الدروب، إخترق كل الرياح المتصارعة،

بروائحها، وغبارها العفن. ليستوقفه مسجد السنة، حيت لا يخلوا من الأذكار الدينية والمريدين بكل طرق التصوف التيجانية،والقادرية،والبوشتيتية،والإسلامية وعلى رأسهم الشيخ علي الذي تتلمذ على يديه أنجب الفقهاء .فيرسل في طلبه أحد المصلين لأنه لم يسبق له الصلاة أو أداء الزكاة ولا التسبيح ولا الوضوء. فيخرج الشيخ من باب المسجد والنور يسطع. وينعكس في وجهه كمصباح مضاء، يتوهج بياضا. داخل جلباب أبيض، تفوح منه رائحة المسك، التي تنعش الرئتين وتلهمها حبا في إستنشاق المزيد.

فيخاطب فرحات بوجه مبتسم:

- السلام عليك ورحمة الله قل لي ماذا تريد؟

وعليكم السلام أرسلني والدي من أجل أن أطلب منك زيارته الأن لأنه يود مقابلتك والحديث معك في أمر ما.

-حسنا هيا بنا على بركة الله

فلما عاد فرحات والشيخ ودخلا الغرفة، كان أباه مسند الرأس على الوسادة كأنه نائم، لازال يمسك المصحف بين يديه فقال فرحات أبي.. أبي..أحضرت الشيخ إستيقظ، لكنه لم يحرك ساكنا أو يستجيب. فأقترب منه ودنى بركبتيه قربه فحركه ليتأكد من نبضه وتنفسه فدعر قلبه وصرخ بشدة كنواح إمرءة أصبحت أرملة. فإجتمعت حشود غفيرة أمام المنزل يسترقون السمع. فأوى الشيخ إلى فرحات، وويضع يداه على قفاه في حنية، متناهية. ومرر يده على رأسه برفق على شكل مد وجزر. قائلا يابني لا تبكي ولا تصرخ فكلنا ميتون. وكل نفس دائقة الموت إن لله وإنا إليه راجعون

- فكيف يتركني بعدما تعرفت إليه بعد فراق طويل أشبه بنوم أهل الكهف.

-إستغفر الله إن الشرك لظلم عظيم ،قدر الله ما شاء فعل ..

فتمت جنازته بحضور حشود، غفيرة. حجت من كل صوب قدمت لفرحات أسمى التعازي. وطلبوا منه التحلي بالصبر.وفي الليل تجمع الفقهاء وقرؤوا ما تيسر من القرأن . اتجهت فيه الأيدي للسماء متضرعة

بقلوب خاشعة مطمئنة. وتمتلئ الألسنه بالدعاء، يتضرعون أملاً في غد أفضل ورضا عن حاضر قاس وغفران يستحق نعيما فياضا. لا تستطيع أن تعرف سر دوامهم على هذا بل وبقلب راض وصادق، هل هو الإيمان المطلق أم إنه طوق النجاة الوحيد؟. لكن فرحات كان يفكر بإسهاب في كل ذكرى عاشها رفقة والده. فهو الذي ودعه في صمت لم يعهده ؛ وهو الذي سمع بكاء القادمين متله إلى الحياة أكثر من مرة؛ ستبقى رائحة ذكراه تنبعث دائما من جدران المدينة وشوارعها العتيقة وأرصفتها التي إحتضنته أحيانا، ينسج صورا لأبيه أمام عينيه المتقاطرة بالدموع. وخدوده محمرة بدماء تكاد تقفز من وجنتيه، أما شعره فهو يشعك كحبال ملتوية..تارة يتطلع في أحدهم فيود لو يخبره بأنه أصبح وحيد، يتنفس حزنا صديقا لا يفرقه. وأنه لم يتذوق طعم الإنتقام والإنتصار من الخائن عمر.حتى هذه اللحظة الكئيبة،التي تغيب فيها الماكرة حليمة. والله وحده يعلم كم من جرح أصاب قلبه الصغير، الذي كان ينتظر أن يخاط بحب لكن الغدر والخيانة كانت أقسى عليه فتلاشت معها المسرات .ظل طوال هدا الليل يرى ،يسمع ولا يتكلم ومعدته فارغة تحتضر.يدخن بمعدل

أربعة سجائر في الساعة المحشوة بسموم مخدرة. فالذاكرة المخدرة لا تخفي سرا . أما المحفزات البصرية والذهنية ستكون ضرورية لديك .الأن مكتبة كاملة من الصور في جمجمتك. أرشيف السنوات الأماكن،الوجوه،الوعود،الأحلام الضبابية.فتبا لذراة الحنين التي تكبل ذاكرتك. كلما جن الليل فلا تبصر بعدها سوى طيف، يتشكل من دخان سيجارتك ليسكن في طيات الأرق. متخفيا برداء الذكريات المسحوقة، فتتأرجح بين لحظة الحنين ولحظة الأنين.فتستحضر اللقاء الأخير بالخائنة ، ضحكتها المعجونة بالنفاق،كلامها المملوء بالكذب،وجهها المخادع كالحرباء ،مشيتها المتفاخرة،دموعها اللاذغة تسبح فيها أفعى. فالخيانة لا دين لها والحب إذا وصل لقلب سيده أفناه،فلا تيأس من وحدتك فهي المكان الوحيد الذي يضمن لك عدم خيانتك .

إستيقظ باكرا هذا الصباح بعدما نام متأخرا وعيناه متورمتين،متصدع الرأس،منحني الأكتاف،كئيب الملامح يقول في داخله أيعقل أني مازلت حيا بعد موت أبي ليلة البارحة الموجعة .أحس بأن الظلام لا يزال يخنقه ففتح النافذة فتسللت أشعة الشمس مستطردة ،ومبددة لظلام الغرفة ورائحة

النوم. التي لا يشمها لتذكره تلك النافذة في الطفولة عندما كان يراقب أحوال القرية في سعادة ،ابتهاج كالأحمق. الذي لا يعرف ما يجري حوله إلا عندما كبر فأصبحت تراوده فكرة البصق أو التبول من النافذة على الخونة، فتناول فطوره وخرج مسرعا لزيارة قبر الوالد، القلب النابض الذي فقده بقضاء وقدرة الله. فتراقص وجهه بنسمة من الريح الباردة. تتمنى بشوق تؤديه وتعذبه لكنها لا تمتلك قوة، فتضطر لمواساته .فيخترق جموعا من الأطفال يلعبون الكرة في سعادة تراقبهم أمهاتهم عن بعد، خوفا عليهم من يد مجرم. وفتايات يتجملن في كل صباح متمنيات نفوسهن بعريس يظفرن به، قبل أن يفوتهن قطار الشباب. وشيوخ يتبادلون أطراف الحديث في السياسة، البطالة على مقربة من منازلهم المهترئة. فما تركت لهم قساوة الظروف شيئا ليفعلوه سوى تشييع موتاهم في مقبرة تقف وحيذة، تتلذذ بسكانها وشبان أخرون في مدخل الأحياء كمخبري شرطة تائهون في غمرات الحياة وحدها الأعشاب المحذرة من تبقيهم على قيد البقاء.. فهل تستوي الحياة وتقوم الدول وتنمو العقول وتنهض الأمم بالابتهال والدعاء والترجي وبسط الأكف للخالق ليستجيب ... ؟ دون

عمل ... ؟ ودون سعي .. ؟ فقط بالدعاء ... ؟ متواكلين غير فاعلين منتظرين غافلين .. ؟ ! ان كان هذا كافيا هنيئا لما هم فيه

وصل إلى المقبرة بعدما قضى فترة جافة من التفكير أكثر جفافا وخشونة،وأكثر ضياع مريع للوقت.كان جليا عليه الإعياء والتعب لكنه الصامد المثير في وجه المقبرة التي تفتح بابها على مصراعيه لإحتضان كل مغترب .رغم الحزن الذي تهاوى إلى جفنيه تنهد بمرارة كأنه يجتبي ضريبة من الألم في داخله أو مشغول برتق إخفاقات قديمة في روحه،ذاكرته ،قلبه وفي ظل الذي يتبعثر في كل حين.فلا بأس بقليل من الصمت عند قاع الندم والتأسف على ماضاع ويتساءل في داخله هل إنتهى كل شيئ ؟لماذا لما كان كل شيئ حيا ينبض تم توقف فجأة؟وكم من اللحظات العابرة التي إنقبضت بها روحك وكيف ؟وكيف خضت المعارك الصغيرة والكبيرة وحدك والتي جعلتك لا تتق في أحد؟

-موت أبي وأمي وأين براءة داك الطفل الذي كان أنا..

-هجر الحبيبة بلا وداع...

-غدر عمر الجرذ الخائن....

قبل الحجرة الشاهدة التي تحمل إسم أبيه وهو يوجه خطابا إلى والده الذي أصبح ذكرى ذاخل القبر الحالك ،إني انتحب بشدة على فراقك ، الكل ينتحب، الاشجار والأسوار حتى الحجر يفتقدك، الألم ارتسم على الكثير إن لم اقل الجميع، انساب الكدر في النفوس معلنا جحيما يثور على الاجساد، الوجوه عابسة كأنها ميتة، حتى البكاء تطاير شظياه، الالم مجددا في الاعلى يرتسم، اتألم في صمت، اتمزق نصفين، ابكي عديد المرات لكن الدموع ابت أن تنزل، لم تطاوعني ظلت حبيسة هناك بين جفوني اليابسة، فلماذا اخترت الرحيل؟؟ هل أنت ضعيف يا أبي؟ نعم تذكرت المرض اخدك نحو الموت، لعنة الموت لا تترك احدا حي، لعنة تشتت اشلائنا تقضي على امالانا المنثورة والمتلاشية، احسست بك من بعيد ، كأنك أنت الوريد الذي يربطني بهذا العالم، لماذا هذا الغياب القاتم؟ هذا الفراق الموحش،؟ إستبصر رجل في هندام كان وجهه كتلة من التجاعيد تتخللها أتربة سوداء قاتمة ،ترتسم عليه كل خطوط العمر ،خديه متدليان إلى الأسفل وعنقه مترهل.أصبحت تقب أنفه أكتر

إتساعا.كانت له عيون سوداء جاحظة تتخللها عروق حمراء طوقت قزحيةعينيه وبؤبؤه المظلم.أما يديه تشبهان المخالب بدى كأنه يبلغ من العمر قرنا .يحمل كلتا يديه مصحف وتسبيح يلف عنقه ،تقرب منه قليلا فطلب منه أن يتلواعلى أباه بعض الأيات بمقابل مادي جعله يبتسم طويلا لأنه كلما كان توافذ الوفيات والزوار إلا وربح مالا وفيرا أصبحت مهنته الدعاء للموتى بالمغفرة والدعاء على الأحياء بالموت.قرأ بصوت فيه عذوبة ولحن سام رقراق،وبينما يواصل تجويد كتاب الله الطاهر دخلت مرآتان شدت إنتباهه وإستوقفت عيناه مستقطبة ذهوله من المنظر الشنيع الذي رأه .وجههما محاطان بلون أسود معيب ومرهب .تفر منه الشياطين قبل الأطفال والعصافير،عيونهم شاحبة بلا نقطة نور كالعنب الأسود.تزداد شكوكه حول هذين المرأتين بفعل تصرفاتهما الغريبة.جلسا بقرب قبر متأكل نبشتا منه قليلا فأخرجت من حقيبة سوداء بعض الأقفال والمفاتيح .وضعتها بداخل القبروهي تتحدت بلغة الشيطان لجلب اللعنة والأرواح الشريرة الخبيتة.إنه الكيد العظيم والضلع الأعوج الذي لم يرد أن يستقيم يوما وظل منواله عللى الخيبات المتأصلة في التشعود.

أنهى جولته مودعا أباه،الروح الطيبة،الطاهر المخدول.وخرج من المقبرة خائر القوى، ممزق القلب.ظل عائدا حتى صادف بائع المثلجات الذي يمتلك عربة صغيرة تجر باليد،يحيط به العديد من الأطفال في سعادة ،ونشوة مذاقها الحلو الذي لا يقاوم.إشترى قطعة مثلجات باردة لعلها تطفئ لهيب النار بصدره رغم إحساسه بقرحة المعدة والجوع الذي يمزق معدته لأنه لم يتناول شيئا منذ يومين عجاف.ليعود من جديد ليتوه في واقع الأحلام القاسية والخوف من أن تكون واحة النجاح مجرد سراب . واقعه الحزين يبتسم بغموضه المعتاد في سخرية ، يسحق التوقعات بدم بارد الأطراف ويفاجأه بنفحات رحمة لم تخطر على البال تستطرد تعاسته المحمومة . وحبه البسيط وصل به إلى حد التعقيد فجعل منه كائن مخيف يود أن يرتمي في حقائب أحضانه ليلتهمه عن طيب خاطر . وحياته الصعبة بعبتيتها سر متعتها ومحاولة فهمها سر شقائه،

الفصل العاشر

تأكد أن حليمة ذات قلب طماع ،يهوى النقود والترف،بينما هو فقير لا يملك إلا حبه لها .وأن مهلة سبعة أيام التي وهبتها له في ترك المنزل قد اقتربت .ففكر في أن يستجمع قواه ويعود مجددا صوب التاجر العبدي ليهبه عملا جديدا يوفر به عملا مدرا لدخل يستعيد به حبيبته حليمة.رضخ التاجر العبدي لطلب فرحات بعدما ترجاه مطولا وعلم بحاله المزري.فقرر أن يمنحه عربة ليعمل بها كحامل بضائع في سوق شارع السويقة . إشتغل حمالا في الأسواق، يحمل البضائع للباعة والمتجولين بين اكتافه المترهلة. يدفع عربة مكونة من عجلتين مكورتين ومقود طويل في أول يوم بين أزقة السوق ، بثياب رثة تدمي القلب،وحذاء ممزق يجر الثراب عاليا، بينما يداه الصغيرتان تمسكان مقود العربة المجرورة بارتعاش وخوف،كان يدفعها بكل قوة فتتحرك بصعوبة وبعض المرات تنحصر عجلتيها في حفرة فيعيدها نحو الوراء ليمض من جديد نحو الوجهة المحددة ،سمع احدهم يقول له : " إن - لم

تكن قويا مفتول العضلات بما فيه الكفاية، فلا تتطفل مرة اخرى على هاته المهنة "

لعنه في خياله بينما لسان حاله يقول سأفعل يا سيدي لكنني لن اموت وسط الطريق . هذا ما قاله في نفسه .

اجل دراهم معدودات، صارت كرامته رهينة بالبحث عن المال القليل، يصارع الوقت والزمن،يصارع خيوط الشمس الذهبية السائرة نحو جحرها المظلم من اجل قفة مملوئة بالخضر والفواكه،، يصول ويجوب الطرقات الضيقة المكتظة بالمارة، فمنهم من بسق عليك بحجة أنه أمس قدمه بطرف عربته، وآخر يركله لأنه عفس على بنذوره الثمين، إن يكن ما اقصى في الحياة فهي معاناة تتمحور حول الخبز، كانت الشمس حارقة لفحت جسدهِ بالكل حتى صار مسودا كجثة قرد عفنة، نادهِ صاحب تلك السيارة الفارعة المسطكة جنب السوق، طلب منه حمل اكياسه الثقيلة بثمن زهيد امام جسم هزيل، ترجاه بأن يضيف له بعض الدراهم الاضافية ، فهو منذ صبيحة هذا اليوم حتى الثانية ظهرا لم يحصد سوى ثلاثين درهما بمشقة الانفس، لم يلتفت

الى برائته واكتفى بتلويك مفاتيح سيارته الفارعة، كان قلبه كالحجارة او اشد قسوة، على اي لملم دموعه وسارعلى قارعة الطريق يترنح كالسكير يفرغ الحمولة يدفع العربة اللعينة، العياء يداهمهأخد منه مأخده،

سرق بعض التمرليخفف من نار الجوع داخله. وقبل أن يلتهم أول تمرة ، شاهدهتاجر التمرمن محله،فضربه وعفس عليه معالصراخ الطويل المطالب بالرحمة، يوم واحد كحمال صاحب فيه الكثيرمن المجانين والمتسكعين على قوارع الطرقات، صارع الاقوياء من اجل البقاء حيا ، دخن قليلا ليظهرمدى رجولته امام دناءة اللقطاء، دخن ليكون قويا امامهم، لكنه لم يحكي مع بائعات الهوى الذين يملؤون كل مخارج المدينة ، حافظ على انفاسهمن الخبث، انسلخت راحة يدهلكنه لا يهتم لأن طموحه أعظم من الألم، فهو تنقيب عن الدراهم لبناء مستقبله، الشمس مرة أخرى تلفح جسدهبالكل، يصير حاميا من هول الحرارة المفرطة، يشتد جسمه ألما ويلهث ويزمجر كالكلب، لكنه يسوق بقبضتيه المنسلختين دون اكثرات لأمرهما، أحيانا عندما يفرغ الحمولة

لاحدهم يعد الدراهم بعيدا عن الأعين الجاثمة، يضعها في جيبه الصغير ويتحسسها دوما أتناء العمل، شاهده رجل كبير السن وهو يداعب دراهمه المعدودة فقال له واعظا، لا تفعل هذا الأمر مرة أخرى، ستخسر رزقك هذا اليوم، اللصوص في كل مكان، لا تنخدع هذه المرة، شكره كتيرا من أعماقه .وصل الوقت إلى الرابعة عصرا وشلت الحركة وأنهكه التعب ، خشن وجهه بالشمس والغبار اللافح، كانت الوجهة صوب بيته، المسافة طويلة جدا، يرافق طريقه سيرا على الأقدام مع عربته ، وهو في حالة يحسده الموت عليها،يتأمل في يشاهده على جنبات الطرق بوجه عابس كأنه هيكل عظيم بارز للعيان تفوح منه رائحة الفناء.رأى الكثير من الوجوه،أحد المنبوذين جالس القرفصاء على قارعة الطريق، يخطف النظر إلى تلك الأيادي المحملة بمؤكولات شهية، لا شك أنها مؤكولات ستوضع على مائدة ملكية، وليكسر من حجم الرثابة التي يعيشها اكتفى بمص لعبابه المتسرب على شفتيه. يتذكر الضرب الذي تعرض له من طرف التاجر بسبب سرقته لتمرة ليسد جوعه ، السيارات السوداء، الارصفة الطويلة الباهتة،وخيوط الشمس

الساطعة تركض نحو المغيب تتطلع في مدخنين يرتشفون دخان من نوع رخيص يتقاذف بين شفاههم، كانوا يتألمون في صمت.،ولا شئ سوى الصمت،لا شئ مفيد في هذه الحياة سوى الالم، وبينما يسيروسط ذهول هذا الشارع ، الذي جوانبه مخضرة باشجار النخيل المثمرة، جاءت عيناه على ثمارها المعسولة، حينها كانت معدته تتراقص من هول الجوع، لم يصغ أوينتبه لأحد، تسلق احدها بخفة متناهية كقرد متمرس تاركا عربته معانقة جدع نخلة، أكل ماطاب ولذ منها قبل أن يستوي على الأرض، إنتعش كثيرا بقضمها واحداة تلو الأخرى، باغتته سيارة الشرطة من حيت لا يدري، لم يعرف كيف يبرر جوعه في تناول ثمر نخل عمومي، أوكيف يفر، ولا حتى كيف تستقيم قدماه على الأرض، تجمد مكانه خائفا، ، آكل الضرب والكثير من الشتائم ، حتى أحس بداور طفيف، لكنه لم يبالي بأمره البثة، انها شمعة وجدانية في داخله لن تنطفئ مجددا ، ولن تنتهي وسط الطريق بل ستسير إلى المدى البعيد. عاد إلى المنزل وربط عربته بعامود كهربائي يتواجد أمام المنزل. فتح الباب بسهولة بهمسة المفتاح للقفل دون أن يقاومه ،أنار الغرفة دون أن

يسمع على سلامتك كما تعود سماعها من حليمة أو أبيه. فقد غادرا معا.حليمة نحو الغنى والترف .أباه نحو القبور الحالكة.إندس في فراشه كما تندس الأفعى في جحرها دون أن يغتسل أو يغير ملبسه الذي طغى عليه التراب والعرق .فقد بلغه العياء الشديد لما كابده اليوم من جهد عسير في العمل .تم إستسلم لحلم غريب بعدما طوقه الظلام وسرقه النوم ويبست عواطفه. حين ركن جسده نائما داخل غرفته الصامتة والموصدة بكأبة،حينها تذكر حليمة في لياليه الوردية معها، على ضوء خافت،وتلك الهمسات و الكلمات المطرزة التي رسمت سماءهم أياما. تبدأ صورتها تنحدر امامه كالشبح يقف شامخا وقفة إجلال لترهيبه لكنه لا ينفطن منه خوفا، بل يترجاها أن تظل لبعض الوقت، يجد طيفها دوما في عجالة من أمره، لم يحس أبدا شبحها المستفز تجاهه بتلك العاطفة المخبئة سنينا وبذلك الحب الجياش في صدره الهزيل، لم ينسى صورتها دقيقة ولا معطفها الصوفي الخرز بالقلوب، لقد تركته منسيا عندهِ في الغرفة معلقا على الجداروزقزقة العصافير الهادئة كالقدر لا نترك هنيهة إلآ ومشطت شعرك المالس، وانت تنظرين إلى مناقير

الطيور فوق الغصن وهم بدورهم يتبادلون العشق في نغمات مطولة، سلقد علمنا الطير كيف يحب وقريبا سنعلم الحجر كيف يحب والعالم كيفية الحب، فقط بشرط ألا تنسي صورتي الدامية

، تخيل أنه يلقي على مسامعها عبارات جميلة من بحر الحب على ضوء خافت، تطير من شدة الفرح كأنها عصفورة تترنح بين غصون الاشجار الشائكة، تريد إمتحان جناحيها الصغيران، كانا على أثم استعداد للطيران ،وثارة أخرى تمسك بيديه المتسختين مجبرة إياه السفر بعيدا إلى عالم مغاير، عالم تشوبه الورود والكلام المعسل، لطالما تمنيا طويلا الذهاب إليه بعينين مغروقتين بالشوق والنسائم الحميمية .... فيما يتبادلان القبل بنشوة ولذة، وحدهما من دون الاحياء ،لقد شهد لهم الله بفرح جديد مسيرته حثما ستكون رائعة، لا تتوقف عن الحب، بلا إمتعاض يعبرلها عما يحس به،ما يجول في خاطرهِ وأن الجميلة حثما في إنتظارك، ربما لا تملك سيارة رفيعة أو بيت فخم يقهر الدهر صمودا ، لكنك تملك قلبا كبيرا وردحا من البيذر تأكل الطيور منه أينما حطت وإرتحلت، لا انصحك ايها الصغير بالابتعاد، تمسك

جيدا بيدها ولا تفارق خدها إلى الممات ، يفتقد عناق صوتها الهادئ ،تفاصيل يومها بجزئياته المملة،وأن يلتهم كلماتها، كتلميذ نجيب لا يرفرف له جفن أمام معلمه، ، يفتقد رائحتها، يؤلمه قلبه لغيابها،يشعر بغياب الأمان، . الحيرة تقتله، لحظات إحتياجها يلبيها غيره في خيالها . هل دقت الخيانة ابواب قلبها؟ أم أن الخيانة تكون فقط لمن يمتلكون قلبه؟ كم هو قاس الليل المسكون بالوحدة . من يخلصه من الحرب التي إتخذت لنفسه ساحة قتال؟

استيقظ في الصباح مرهق،ومنزعج، لما باغته نور الشمس المتسرب من النافذة.فاستجمع قواه وذهب إلى المطبخ وبلل وجهه مستطردا النوم،حضركوب شاي،وقام بتسخين قطع خبزمتبقية من الأمس وتناولهم بكل نهم ولذة.تم غيرملابسه مستعدا لمغادرة المنزل للعمل بالعربة.لكنه تفاجئ لما فتح باب المنزل والعربة غيرموجودة ،لقد تمت سرقتها ، أعاد التفتيش مرة ثانية وثالثة بعدما أخد منه الذعر مأخده، يده قبضت على الخواء لكن الخواء كان حليفه في كل مرة. تجمعت العبرات كثيفة في مقلتيه النائمتين، لعن اليوم الذي قرر فيه هجرة

القرية صوب المدينة، هجمت عليه جحافل من الأفكار القاتمة، فهو في جميع حالاته لن يولي الأدبار ويعود بخفي حنين للبادية، حينها سيعطي فرصة للشامتين والمعارضين كعمروحليمة كي يفتحوا أفواههم النتنة ويجعلوا منه أضحوكة أونكتة مضحكة. ترك المجال لدموعه كي تنسال غزيرة على وجنتيه، بعدما فشل في كبح جماحها، سقط بجسمه على الأرض، منكسرا محطما، حطاما أدميا لم ترحمه الحياة، ظلت أنفاسه تعلو داخل صدره المنهك، أحس حينها بالضياع ودوي صراخ عنيف داخله. تذكر قول والده الراحل : " أن المدينة عش حاضن لأبنائها، ولبؤة مفترسة للقرويين " عم المكان صمت رهيب، جمع المسكين شتات قواه الهارب، وقف مترنحا، وجملة واحدة لا تفارق لسانه المتلعثم : أن للغضب أن ينفجر. وأن للأوغاد أن يموتوا موتة الكلاب.دخل إلى المنزل اتجه مسرعا الى مرآته المكسرة .واخدها باليد اليسرى. ووجهها صوب وجهه العابس ملقيا عليه السلام وقال له سائلا ما بك يا هذا اراك حزينا ؟ صمت كغير عادته فقال له ما بك يا هذا لم ترد السلام ؟ماذا بك اليوم هل أصابك مكروه ؟ لم ينطق بحرف ولا

كلمة كأنه فرعون مصري محنط في وضع صامت ؟ انذاك علم انه يعيش أزمة نفسية ازدادت في وجهه تجاعيد البؤس والحزن .ظل في دائرة التأنيب طويلا،يقارعها ببؤس في متاهات الغضب والحزن صاروجهه شاحبا كأنه على حافة الموت ،أحس بوحدة بالغة وتمنى لوكان بجانبه أحد يواسيه حتى ولولم يكن أدميا فلم يجد أحد سوى نفسه أمام المرءات .. فقال وهو يقابل وجهه في المرءات ماذا بك يا هذا هكذا كتبت عليك الاقدار ؟كتبت عليك ان تعيش حزينا وبئيسا ليختبرك الله على مدى صبرك ؟فمزيدا من الصبر لأن الله مع الصابرين؟انتفض في وجه المرءات كثور هائج وقال اصمت يا فرحات الملعون ... ؟فقال له بصوت اعلى انا لست ملعون أنا اقول لك الحقيقة .. فقال بالله عليك عن اي حقيقة تحدثني اياها. انت الان تحدتني عن الامور التي يسمونها الغيبيات التي لا يعلمها الا خالقها ؟فقال له هذه ليست بالامور الغيبية يا اخي هذه حقائق كونية كل شيء مكتوب وقسمة الله بالعدل بيننا .. انتفض في وجه المرءات مرة اخرى فقال بصوت عالي هذا تناقض هذا ليس صحيحا لماذا البعض يعيش في غنى ،بدخ ،قصور والبعض من

أمثالي يعيش في حاويات الازبال ، شوارع و الازقة، والمحطات الطرقية. أهذا هو العدل ؟ فصمت كغير عادته ولم يحرك ساكنا ؟فقال اجبني ايها الملعون الغريب ؟تجاهل نفسه كأنه لم يسمع الخطاب الموجه لذاته ؟ناد على إسمه بأعلى صوت وقال أجبني أيها الملعون ؟غضب مما كان يقول وقال له اعوذ بالله من الشيطان الرجيم، استغفر الله؟ صمت قليلا وقال تبا لك ايها الملعون فانت تشبه الاسلاميين تدافع عن الدين بالفطرة و ليس بالعلم لن ولم يتطور الدين بأمثالك وأمثالهم .. قدر ما يحتاج الدين الى من يجدده بالعلم والمعرفة والادلة العلمية وليس اعوذ بالله من الشيطان الرجيم واستغفر الله ؟ لازال وحيد في كنف الهدوء. وفي قلبه براكين من حمم الغضب،لأنه رفع كف الوفاء، وأثر الوفاء ليس بحصيد. تائه في تاريخ مساوئ الغرام. الذي يعصف بأمله كسرعة البرق. فيشدو ببصره نحو سقف الغرفة،بنظرة مضببة،عاجزة في خواء.تم يمسك سيجارته،ترياقه السحري.ليصافح قلبه حضن دخانها.ومتأفف على حبيبته التي جنت عليه يد غدر.يا لسخرية القدر.كيف تركته وحيدا بقلب ينبض

بحبها؟وماذا فعل لها حتى تذبح قلبه بكل قسوة؟وبينما يتساءل بحنق مختنق بالأسى. بكى قلبه.فهربت الدموع من مقلتيه،ذابلة تبحث عمن يمدها بالدفء .هكذا يفعل الشوق بالمشتاق حين يعقد معه صفقة إنتظار.ويرحل نازعا عاطفته، ويتجرد من إنسانيته

الفصل الحادي عشر

وحده بوجه شاحب ،قلب بائس يشق الطريق وعيناه تجوب في كل مكان، متجاوزا ألاف الوجوه الخالية من الملامح. وألاف الأزقة التي تروي كل منها حكاية .متبعا ذكرى وصوت بداخله ورائحة هزت خاطره ودفعته شوقا للبحت عن الفاتنة، التي تجيد كل فنون الاتارة مستعينة بكيد الشيطان، وألذ الأعداء . كان الصمت يعتلي المكان .. فيشتد الشوق إليها! وغيمات الوجد تمطر على قلبه العاشق .. همسات تنادي النسيم .. فيرقصان على لحن النور .. و اللحن واحد .. أهواك وأتمنى لوألقاك !! خذني إليها .. عناق بلا افتراق. شعلة احتراق أو شربة ماء ! .. لننسى البعد ونغرق في طول التمني فهي الشوق، النار والأبر .. هكذا الحنين على قلبه الحزين استقر. ماذا يفيد أن نحيا .. وقد عدنا أغرابا !؟ نلتمس حروف الحب في قلب الجراح ونعتز بالقوة ونحن في نهر الانكسار ! انا بدونك لا شيء وانت بدوني لا شيء كيف نرحل .. قبل الرحيل الأخير يكفينا غربة .. هيا نسامح فينا الألم ! غريب أن تتوه وأنت مني كنفسي حين تبحث عن أمانك ! واغرب منه حين أشعر .. اني لخوفي عليك ومنك أرغب

باحتضانك ! يا طهر حلم .. سرى في دمي تعالي اضمك قبل الرحيل

وسأعانق فؤادك بلطف ولين أراك هجرتني هجرا طويلا وما عودتني

من قبل ذاك عاهدتك لا تطيق الصبر عني .. ولا عن رأياي !! تعصى

ودادي .. ترفض وصالي من نهاك .. ما أقسى جفاك ! ؟ كيف تغيرت ..

ومن هذا الذي نهاك ؟ ! لابد من عتابك ..لكن عتابك لابد أن يكون

أمامك وتحكي ملامحك ماالذي تخفيه: كل ما في الأمر أخاف عليك ..

يمكن وقت الندم تحتاج حضني ولا تجده !! كنت لي يوما حبيبة لكنك

اعتدت الهجر والغياب سألتك لماذا عني تغيب؟ قلت يكويني العذاب

قلت لك ولما انا لا أغيب؟ كسر القلوب صعب فما أقسى قلبك على قلبي

حرمتني عشق حضورك رغم أنك تعي أنني مدمن لشذاك اخفيت

وجودك عني ربما غيري قد اغواك ! قلت .. القدر حكم بالذهاب مسائي

ساكن وبارد ينتظر دفء حضورك فكل ما حولي صامت يعلنه حزنه ! إلا

همسة حب متمرده .. تتسلل عبر جهازي التنفسي والعصبي .. تناديك !

لتلك الروح التي تقبع في مكان ما تلك البعيدة التي سكنتواستوطنت

ذاكرتي وقلبي ! هي البركان حين يستيقظ حنيني إليه والبحر حين تثور

اشواقي هي الحاضرة الغائبة الراحلة عن سمائي وأنا العاشق الوفي!

سلام على روح سكنت روحي واشبعتني هجرا وغياب فعدت تائها أنا مابين شرق غيابك وغرب رحيلك مابين شمال اشتياقك وجنوب حنينك أحتاج بوصلة لنبضي لتشير لي .. أين قبلتك ! هكذا الحنين على قلبي الصغير انفصل.

ولما وقف مباشرة أمام منزلها الفسيح. وصوب عينيه نحو البوابة. لمحته حليمة من النافذة وزاد توترها،إنظغطت شفتها كأنها لا ترغب برؤيته مجددا. فاختفت قليلا تم ظهرت أمام البوابة،متجهة نحو فرحات . إلتقت نظراتهما في لمحة سريعة عفوية، لكن شيء ما دفعهما للنظر مرة أخرى، طالت النظرة و إنتاب كل منهما شعور غريب،، بينما هي شعرت بفضول كبير يجتاح عقلها، شيء غامض يجذبها و يريد معرفة المزيد عنه . حيث أصبح في مواجهة بعضهما البعض في صمت، لا يعرف كيف إستطاع إلتقاط رائحتها من بين كل الأزمات والنكسات، بل و كيف تيقن إن تلك رائحتها هي دونا عن سواها و ما سبب تلك القشعريرة الخاطفة التي عبرت في جسده . لم تستطع هي أن تبعد عيناها عن عيناه، رأت

بهما رجولة طفولية و حزن قائم على بقايا سعادة مضت .. تم لبتت أن تحولت نظرتها نحو الإنكماش ، تتقاذف من عينيها شرارة لهب النار بلا رأفة وبدون تحية قالت بصوت مرتفع

-ما الذي أتى بك الى هنا ؟

-قال وهو يتأمل في وجه حليمة بنظرات عميقة. تم نظر للخاتم في أصبعها بأسى ..جئت من أجلك ولن أعود بدونك

-إنتظرني في مقهى الغرباء سألحق بك بعد تغيير ملابسي وبعدها سننهي كل شيء

- سأنتظرك ...لا تتأخري

دخل المقهى واختار طاولة حمراء. عليها ورود خضراء من البلاستيك في زاوية المقهى واللهفة تهز خاطره .فاشرأبت حليمة في توب أبيض مطلة كشمس الصباح المتلألئة : دانية نحو المقهى تختال بمشيتها وكلها خفر وحياء ... ومع ذلك ورغم حيائها لم تخلو من استراق النظرات والتمعن بوجوه كل جلساء المقهى !... دون ان تبدي لأحدهم اية لفتة إعجاب أو

حركة دلع رغم مشيتها البطيئة وتمايلها بدلع. جلست في كرسي مقابل له .ولما التقت عيناهما قال لا تهجريني. أنت روحي وحياتي. أصبحت هشا من دونك، فقوتي تبخرت لكن بداخله صرخة نطقها النبض صمتا، وباح بها الفاه جهرا .وما شد غرابته وانتابهه أنها ظلت صامتة تنظر الى ساعتها كل وقت وجيز. الا أنها طلبت كأس ماء لنفسها وحيرته تلك اللمعة الحادة في عيناها فأحضر النادل كل ما طلبته بعجلة ونظر إليه مطولا كأنما يستقرءه وانصرف.

في محاولته البائسة لإقناعها بالعودة، تمت محاصرته داخل المقهى من طرف ستة رجال بنيتهم الجسمانية ضخمة، عيونهم تابتة متسلطة على فرحات، الذي يترقبهم في غرابة ويخالجه التوتر فيحرك أصابعه بدون وعي. تم يدخل شخص ويتوقف في البوابة سبقه ضله فعرف فرحات أنه المعطاوي، من ملامحه العصبية، وأنفه الأقنى كالسيف فهرع كل الحاضرين خارجا في دعر. إلا حليمة غادرت بخطوات بطيئة، رأسها منحني قائلة حذرتك مرارا من ألا تقف في طريقي، لكن رأسك صلب لا يفهم إلا بالقسوة ، ايها الرجال علموه درسا مؤلما على طريقتكم الخاصة

دون أن يرف لكم جفن فتنهال عليه الضربات من أيديهم المتصلبة من كل صوب و ناحية و هو يحاول الدفاع عن نفسه بدون جدوى حتى مل منه التعب و تتاقلت قدماه فجاء المعطاوي اليد اليمنى لعمر ليضع خدشا بسكين على وجه فرحات الوسيم. فيصرخ بأعلى صوته كصيحة عاتية فيصرخ أيضا المعطاوي في أدنيه قائلا أصبحت تتجسس علينا و تلاحق خطيبة عمر ألا تعلم أن القانون في قبضتنا و نحن من نصدر الأحكام و الأوامر فغاب فرحات عن وعيه و سقط مغما عليه ، لقد كان مخططا للايقاع به يا له من فخ محكم من امراة مستبدة ، و لما يفتح عينيه يجد نفسه فوق سرير مغطى بلحاف أبيض. داخل غرفة مضاءة وحقن مزروعة في يده، تمده بالقوة و الأكسجين يتسلل الى أنفه. و يداه تداعب الجرح الغائر على وجهه في ملامح عينيه تتقادف شرارة الغضب و امامه رجل يستند الى الجدار يبتسم في وجهه بلا مقابل يكرر قائلا الحمد لله على سلامتك ، الشكر لله . أنا ادعى إبراهيم لقد تحملت عناء احضارك الى المستشفى و التكفل بعلاجك .

- فرد فرحات باستياء كبيرو الوحدة تأسره ،محبط الأمل مرهق الرموش تتولد من رحم عجزه ألاف النكسات و تراقبه الجدران كلاطلال الباكية بلا حركة و لا لهيب الشوق يحترق للمتمردة ملامة لغدر معشوقته. و جاذبيتها المستبده و الحلم الذي قتل تحت قناعها في حادثة مرتديا زيه الاسود. حدادا على ضميره المتوفى في خريف فتنة العشق، الشرسة. فلا تحزن فكل امراة تعشقها ستكسر قلبك رغم حلاوته في منفى كقدماء التحرير بلا وطن. قائلا كان يجب تركي أتجرع مرارة الموت و طعم الخيانة فالجرح في قلبي و ضميري أقسى علي من الجرح في وجهي. الذي سيهابه الناس كاشارة الخطر أعدك ان أرد لك الدين عندما أخرج.

فأجابه ابراهيم وهو يضغط على شفاهه كأنما أحس بألمه.الرجل لا يعاب مهما تكالبت عليه المصائب. فهو الذي تهابه الشدائد.هل لديك رقم من أرقام أقربائك أخبرهم بما جرى لك ؟وأطلعهم على حالتك الصحية قد يكونون يبحتون عليك فأطمئنهم أتريد ذلك ؟

-انظغط الهواء برئتيه وتنهد كالمنهزم على أمره، ونظر الى ابراهيم بخواء وكسى جفونه الذبول قائلا بلى ليس لي عائلة. لازلت الغريب الوحيد

المصاب بلعنة الحياة. وهو يتساؤل بحنق وهم لما كل الأشياء تتعقبني وتحاول افساد حياتي ؟ كل الجذران الخرساء تحدق بي وتحاول السقوط فوقي ... كل النساء يتعاملن معي بحماقة العطف الذي تشوبه رغبة التخلي السريع ...كل سكاكين المستشفى الحادة تحاول تقشيري ... كل الذكريات ترغب في نسف رأسي ... كل البحار البعيدة تناديني لأغرق .. كل المقاهي تقدمني كحادثة طعن فعلها اوغاد .. كل المحطات تصفع وجهي.لماذا كل هذا الحظ التعيس ؟

-لا تقل دلك الحياة امتحان من الله ليختبرنا ويعرف مقدار صبرنا وعبادتنا...فيقاطعه وما عقاب الخيانة يا س ابراهيم ؟التي لا يعرف بشاعتها إلا من شم عطرها المر..

إسمع يافرحات الخيانة حلم يروادنا في المساء وفي الصباح ينذتر. أو لا نتذكره كذلك وجب أن ننسى الماضي ونعيش الحاضر بكل حلاوته، مشاكله،علاقاتنا بالأخرين وكن على يقين على أن من خان يخان.

أخد إبراهيم فرحات في اليوم التاني إلى منزل يتواجد في ضاحية المدينة ،ووفرله ما يلزم للعناية بصحته وحالته النفسية من دواء،وفراش متكامل يمنح الدفئ والراحة،وأمده الطعام بمختلف الأشكال .جعله كل هذا الإهتمام يتساءل متعجبا.لما منحني الله هذا الكائن البشري بهذا اللطف الشديد؟ أم أن القدرأشفق علي لما تنكرالأحبة ؟لقد كان بمثابة أخ جديد منحته له الحياة والظروف ليواصل صراع البقاء مع العالم المفترس ،ويدلل الصعاب ،يمتحن الغرباء ويفك من جديد طلاسيم وأطلال الخيانة بعد بعتها ظلماء.يخالية من جوف الصدق المرصع بالطيبة.وفي الجانب الأخرمن المنزل يناظره إبراهيم الذي يشد ظهره إلى الجذارمتطلعا في فرحات بعيون عاطفة تملئها أمواج الحنية والحياة البراقة .وليكسر رتابة هذا الصمت العجيب الذي يستطرد النسيم بلا منازع. يقول بنوع من وكرم الضيافة والإهتمام :

فرحات ، ما أحوجك إلى الراحة والنوم الأن

هل قدمت المساعدة من أجلي أم بسبب عجزي؟

-أنت بحاجة إلى الراحة لتطرد نفسك المضطرب

-انحدر الدمع من مقلتيه تباعا،فتنهد يائسا. وسائل نفسه بصوت منخفض

هل أندفع نحو الهلاك ؟

-ليس جبانا من يندفع نحو التحدي

-مد بصره نحو النجوم الساهرة من النافذة وقال بعتاب

-كيف يتحول الأحبة إلى أعداء؟

-فقال بحكمة: نفاد الزاد

لعنة الألم أحرق من جمرة..

مكث عنده ثلاثة أيام ،كانت كفيلة بأن تتوطد علاقة الصداقة بينهم بكل ود، ووئام .وفي اليوم الرابع لما اقترب المساء وغروب الشمس ،طأطأة في رأس إبراهيم فكرة جهنمية. لا تخطر على بال الشيطان، قائلا الى فرحات الليلة ليلتنا ويجب علينا أن نسرق عدوك فسرقة الأعداء واجبة لاسترداد

الحق المغتصب ،وجلوسك الكئيب كالمرأة يكرس الضعف والاعاقة. فمن يضربك على يدك فأضربه بكلتا يديك على كامل بدنه،فقاطعه فرحات قائلا :لكن حراس فيلا عمر كتيرون ،متهورون ونجهل عددهم سيطلقون علينا النار في أي لحظة فحياتنا أمامهم كذبابة تصارع ثورا.

فضحك ابراهيم بصخب مرددا هل سندهب خاوي الوفاض؟ تم اتجه صوب صندوق خشبي عليه غبار شديد، وأتار بقايا الحديد الصدئة .أخرج منه مسدسين وقطعة من القماش مليئة بالرصاص. فناوله مسدسا جعله يجحظ فيه بعينيه في ذهول. فهي أول مرة يمسك مسدسا بيديه اللتان تترعدان خوفا. احتقن وجهه دما يكاد يتدفق منه هربا. واسطكت أسنانه مع بعضها قبل أن يقول.

- أ تريد أن تورطنا وتدفع بنا الى الموت

-لا تكن جبانا فالحق والكرامة تعاد بالقوة. ونسيت أن أخبرك البارحة بعدما وجدتك على الكنبة تغط في نوم عميق وأحلام أسطورية واللعاب يتقاطر من فمك .كنت تتحدث عن أشياء غريبة كأنك رئيس دولة تلقي

خطابا، رنانا. لا يفهمه الشعب.فقد كنت في الصباح أسير بحي الورود ذاهبا نحو المخبزة فصادفت موكبا من الرجال والسيارات، ترمي المنشورات الانتخابية عليها اسم عمر.يطل في صورة مبتسما. يرتدي فيها كوستيم أسود قاتم ،نظارة ،ربطة عنق .

-زارنا لما حل موعد مسرحية الانتخابات وذلك من أجل التباكي ،الوعود الكاذبة ،سرقة الأصوات من الجيوب المرممة من الاقتطاعات.ليصل لمنصب مرموق فيتنكر لعهوده ويشرع القوانين، ويتخد مختلف الأجراءات المجحفة في حقهم فهل من صحوة ضمير تحاسب هؤلاء.. المواطن المغلوب على أمره يسهل صيده ليتنازل على صوته المبحوح للمترشحين لا يزيلون الأذى عن طريقه ولا يستقبلونه بوجه متفتح طلق إذا ماأتاهم شاكيا في مكاتبهم، يجيبونه بصمت القبور أو جملة إحترم نفسك فهذه إدارة ، إلا من رحم ربي، كأنهم انتخبوا ليستمتعوا فقط بحصانة المقعد ورواتبه الخصبة.. تمثيلية إنتخابية بحضور مخرجها ومساعديه محاطين بذاك الكم الهائل من الممثلين كل منهم منتظرا ما سيوكله له المخرج من دور في هذه التمثيلية وحسبما يليق بشخصيته لتلك الادوار وكيف

سوف يشخصه على مسرح الفقراء أما المخرج لهذه التمثيلية عمر القذر.. ومساعد مخرج أول هو المعطاوي .. أما المساعدين الباقين فما أكرهم ولكل منهم رؤيته ونظرته وما مدى ما سيتركه بنفس المشاهد من تأثير ... أما من سيقوم بهذه الادوارمن الممثلين وكل حسب ما أوكل اليه من دور ليلعبه بهذه التمثيلية فما أكثرهم !!... وكل واحد فيهم قد اجاد دوره كما طلب منه المخرج أو مساعده !!.... كما هيؤوا الأوراق النقدية الملائمة لاكمال الاعداد للمسرحية ليكون الصوت والفعل لمضمونها .منهم من قد آلمته كفاه من شدة التصفيق اعجابا .. ومنهم من اتخذ ركنا بالشارع وانزوى فيه غير مبالي لما يدور على المسرح ..والبعض منهم قد استغل انشغال الحضور بالمتابعة لفصولها وقام بسرقة ماسهى عنه الحضور !... وما أكثر الاغراض التي سهى عنها المشاهد نتيجة لاندماجه الكلي مع هذه التمثيلية الإنتخابية

- لا تتحدث في السياسة فللحيطان أذان ولكن أوافقك الرأي الظلم لا يطول..الحق ينتصر.

فدنى ابراهيم منه وشد على ركبتيه ،نظر الى عينيه بحدة كأنه يضع بداخله انسانا جديدا، قاسي لا يعرف الرحمة. فأخد المسدس من يديه قائلا سأعلمك كيف تستعمل المسدس بخفة ورشاقة وتردي عدوك في لمح البصر،وجلجل بضحكاته السامة، مبرزا عن أنيابه التي يخالطها السواد، ونخرها الدخان والتبغ.عليك أن تحشوا المسدس بالرصاص تم تصوبه باتجاه عدوك وتضغط على الزناد.

-متى سننفد هذه العملية يا ابراهيم

-غدا بعد العصر عندما يعود عمر الى الفيلا، مصحوبا بسيارات المراقبة عندها سنطلق عليهم الرصاص ونستقل سيارة لهم.

واستمرت المشاذات الكلامية بينهم لتحديد الطريقة، والخطة الناجحة بعيدا عن أي خطأ محتمل. ومع أدان العصر،توجها الى فيلا عمر بالقرب من المتنزه الوطني. وراحا يراقبان بوابة الفيلا الحديدية. التي يقف أمامها حارس يراقب كل الاتجاهات بعينين تاقبتين. دون ملل أو كلل. كالمجنون

المصاب بهستيريا التجسس. وبعض ساعات من الانتظاروالترقب لمح سيارة تقل سيدين

تسير ببطء نحو الفيلا. فاتجها نحو السيارة بخطوات متسارعة، واقترب من الباب الأمامي ووجها مسدسيهما نحوهما وأطلق عليهم أربعة رصاصات. أصابت كلتا الضحيتين. فحاول حارس البوابة إخراج مسدسه، من سترته فتلقفه فرحات برصاصتين. دون أن تطرف له عين. أودت به على الأرض. فسقط جثة هامدة مخضبة بالدماء. ولا ندت عنه أهة واحدة. فرمى السيدين من خارج السيارة. ولازال احدهم يئن من اختراق الرصاص لجسده. فاستقلا السيارة وارتفعت الغوغاء والضوضاء. التي تحملها الرياح من كل صوب، وتبحر في أدانهم. فاستبد بهم قلق فظيع ينبؤهم بكارثة. العرق تصبب من جبينهم نقطا متلألئة. واسرعا بالسيارة كمجنونين مدعورين، حتى ابتلعتهم الغابة، التي تحوم فوقها الغيوم الشاحبة،وصرخات الطيور الجائعة التي تصم الأذان. فطوبى لمن اختار النهاية في فصول المواجهة، وحلبة المصارعة بمسدس وفي محافل السقوط الهوجاء، ذات الحلول العرجاء. فما الذي يبقى للمرء ان خسر

كل مايملك الا يستفزوأماله.فجلس تحت شجرة مستلقين فوق العشب، في الظل الكثيف، يصارعهم البرد القارس، والندى المتقاطر الذي يلسع وجنتيهم، ليكافئهم بشعلة من حريق سيجارة. في هذا الجحيم البارد، نعش المنبوذين، وخلوة يحتج بها الصدى وريح حبيس، وسكوت كمناخ المقابر .أوراق تتفسخ كعلاقات الحب وتتحول الى عداوة بغيظة مع حليمة في أول خريف .

فرغم النجاة بأعجوبة. وفشل الشرطة في ملاحقتهم ألا انه انتابهم الفشل الذريع. فقد تعرف عليهم الشهود الجواسيس وسيرسمهما الشرطي الفنان بكل مواصفاتهم، ليضعها في يد السلطة لإلقاء القبض عليهم. فنظر إبراهيم إليه ساخرا بعدما لوا انفه كشكل بومة سيقبض علينا. ولما نقف امام القاضي والأصفاد تعانقنا سيقول حكم عليكم بالاعدام شنقا يوم عيد الاضحى. سيكتب على شواهد قبورنا تائرون في زمن الكوميرا. تم تلى قائلا وكانه يريد ان يخدش في كبرياء فرحات:

-هذه السيارة تبدوا جميلة كحليمة

-اكترمن ذلك تحفة لها سعرفي السوق، وفي صدقها نسخة رديئة..

-ابتسم بسخاء ..القلب لا طبيب يدوايه والخيانة مؤرقة للذاكرة .

الفصل الثاني عشر

لقد جعلت الغابة من طبيعتها الخضراء ملجأ، ينفرد بعزلته الموحشة، وسكينة للنفس المطربة لكن البرودة ونسمات الريح الهشة، تجعلهما أكتر جوعا وشهية لالتهام وجبة دسمة. فطلب ابراهيم من فرحات أن ينتظره في مكانه، دون حراك. وأنه سيتولى احضار الطعام. وبعض الملابس لتدفئة. فأومأ برأسه موافقا. لكن ما ان ابتعد قليلا تسلق فرحات شجرة عالية لمراقبته، فقد همس في رأسه شك مريب. وشابه استغراب وامتعاض بأنه كمين جديد. فلاحظ ابراهيم يجري مكالمة قصيرة على الطريق المؤدية الى المدينة. بعد دقائق معدودة جاءت دوريات الشرطة وابراهيم يشير بيده نحو الغابة أي مكان فرحات. فقد صدقت تخمينات فرحات الشيطانية. إنه أكتر قدرة على قراءة الاشخاص مهما فعلوا وقالو .الأن فهم كل شيئ بأن ابراهيم الكلب المخادع الذي تبنى تكاليف علاجه والتخطيط لمهاجمة عمر. كان وسيلة لكي لا يتابع فرحات قضائيا، أتباع عمر وحليمة على ما تعرض له من ضرب مبرح. فهرع مسرعا متخفيا بين الأشجار والغضب يعتريه ،يمزق كبده. فلم يتوقف الى بعدما وصل الى جانب مقبرة مسالمة

غير قادرة على إيدائه او طرده. فهي ترحب بالجميع بلا مقابل. فتوسد قبرا من شدة التعب والجوع. فأخده النوم وتخيل نفسه يعيش محاكمة والقاضي ينادي على المتهم

- يا فرحات

- أنت متهم بجريمة القتل والحب الخطأ مع سبق الاصرار والترصد ألديك ما تقوله دفاعا عن نفسك؟

- نعم سيدي القاضي أنا بريئ.. قلبي هو المذنب والخونة الأوغاد

- القاضي حائرا ومن هم

- أولئك اللذين قتلوا الأمل في نفسي ووجداني

- دفاعك عن نفسك جريمة جديدة أتدرك عقاب ذلك؟

- كيف ذلك وأنا ضحيتهم ؟

- لماذا تركت املك سهل الوصول اليه الم تقل انه موجود في نفسك ووجدانك؟ أصمت لا تفكر فالفكر في وطني جريمة

- نعم تسللوا في غفلة مني..استغفلوني

- القانون لا يحمي المغفلين ..فلا تجادلني من أجل حريتك سلمها لنا برضاك وقناعتك

- انها نظرية مؤامرة ...ارجوك افهمني وارحم ضعف ارادتي

- تحكم عليك المحكمة حضوريا على المدعى فرحات بجريمة كسر قضبان الياس التي قام بحبس نفسه

- داخلها.والأشغال الشاقة لأطلاق سراح امكانياته المدفونة داخل السجن حتى يستحسن سلوكه ورفعت الجلسة ...فيصرخ من نومه وهو يتصبب عرقا بصوت باكي هدا ظلم .هدا ظلم.

ان أشد عقوبة معنوية ينالها صاحب الضمير الحي في الحياة هي محاسبة هذا الضمير لصاحبه عند ارتكابه اي خطأ بحقه او بحق الآخرين عليه بعد ان يصحو هذا الضمير من غفوته في لحظة صفاء وعودة للذات لمحاسبتها. وجد نفسه داخل المقبرة .يحاصره الظلام من

كل صوب وصوت البومة يتلوا على الموتى بشجن فلمح ضوءا بعيدا. فتجه نحوه ليسرق السمع والاخبار،ويكافئ بطنه الذي يستنجده وهربا من الوحدة والمطاردة في هذه الضاحية البئيسة. والبرودة التي تقشعرلها الأبدان والأجفان وضجيج الهدوء ،الفراغ المخيف الممتلئ بالتشاؤم ،الذهول. يعشش بين جدرانها الأسى المر.وبين طرقاتها عسل الحلم المسكوب، الذي لم يتذوقه أحد فكل هذه المواصفات من شأنها أن تقلب مزاجه وتعكر صفوه، تخل باستقامته ،تصنع منه حكاية مبتورة الأطراف..

وما ان وضع اول قدم له على الرصيف لمح رجلا يرتدي جلبابا ويسعل كل لحظة فطمأن قلبه لما عرفه. يلقبونه بالشيخ العطارلكبرسنه ،شيب شعره ،ملامحه حادة دووجه مجعد ميت، كصنم لا نسل له.ترافقه رائحة العطور أينما حل وارتحل ولكن من عاداته السيئة أنه يحتسي الأن خمرا متأنبا بلا ضميرولا مشاعر.وقليل من الذوق في الاحتساء الطويل كشجرة ذبلت أوراقها وغصونها وما عادت تنيرأروقة العينين وأرصفة الجفون، وبساتين الخدود والشفاه . فجلس بجانبه خارقا مبدأ الصمت نحو الفضول قائلا هل لي بقليل لأداوي به جفاف القلب الفقير؟

-من تكون حتى تقتحم خلوتي وتطلب شربة من حلاوة كأسي؟

فيجيب بنبرة سؤم وقلب ضئين

-غريب في زمن الغرباء

-خد لك جرعة واحدة لتوبخ نفسك لكي لا تصاب بمرض الخيانة العكرة ،الشعور العاطفي ،الجوع الجمالي والمالي وأحلام اليقظة الشيطانية .

-ماذا تفعل وحدك هنا؟

-تقلقلت مشاعره بالهوى في جفاء قائلا طعمه مقزز لا رائحة لا مذاق

-لا تراوغ أجبني على سؤالي

-أنا مطارد أطلب يد عونك

-وأنا حطب متأكل لا تدفعني لموقد النار

-أين قضيت وقتك اليوم؟

-بين الرصاص والقتلى

-أمر مؤسف وهل هزمت في معركتك الدامية

رد منتشيا ومغيضا طرقت رصاصتي مسامع الخونة المدللين لكنها كانت طائشة قتلت أحدهم

-العقاب قطعة من التواب والطاعة ..فاحدرفكل عاشق يخرج من حرب الحب قتيلا واخراج اعدائك من حياتك. هو اماطة الأذى عن مشاعرك تحصل بها على صدقة في ميزان حسناتك تم تلى مجاملا، أنت ضيفي الليلة وأخاف ان تطالني رصاصتك.

-كن كريما بسيطا تكن أجمل

- سكت طويلا يفكر تم قال بعت العطور والأعشاب التي تحتاجها كل امرءة لتكسب حب زوجها فكانت كل الوصفات ناجحة ولم تنجح معي ولا واحدة.. لماذا؟

- انت غير ملام قلبك خلق لجميع الناس لا تستطيع امرءة أن تسرقه منك

- ابتسم طويلا كأنه كان ينتظر هذا الجواب المهدأ تم تلى قائلا :

الإكتئاب يتسلل إليك بهدوء في البداية كنت تعاني من أمور

صغيرة لكنك إخترت تجاهلها إنه مثل الصداع تقول" لنفسك " " أنه مؤقت وسيذهب أو أنه مجرد يوم سيء " لكنه ليس كذلك . أنت عالق في هذه النفسية أنت إعتدت على لباس قناع إجتماعي تختبىء وراءه . و تواصل العيش بين الناس لأنه هذا ما يجب عليك فعله . هذا ما يفعله الأخرون . لكن المشكلة لا تزول . و تعاني عندما ترتدي وجها مزيفا يتظاهر بالسعادة كل يوم .ويبدأ بأستهلاك طاقتك أكثر وأكثر . مما يقودك إلى الإبتعاد ببطىء عن أصدقائك وعائلتك .و أحيانا تعزلهم تماما عن حياتك . الشعور بالراحة معدوم .الأشياء الصغيرة التي كانت تسعدك سابقا . لم يبقى لها قيمة . حتى أبسط المهمات تصبح صعبة .. لهذا السبب ليس لديك محفز في حياتك . لماذا تستمر في المحاولة إذا لم يكن هناك شيء يسعدك . غريب أمرك يا فرحات. كل هذه الأشياء تجعلك عالقا في دائرة مفرغة .. وفجأة تجد نفسك تعيش حياة بطيئة . والأيام متشابهة . مجرد ضوضاء بيضاء . وتشعر أنك لن تكون سعيدا أبدا . فتستمر بالإنطواء و تدمير علاقاتك . و تشعر

بالذنب في كل شيء فعلته أو لم تفعله . هناك شيء في داخلك يريد تصحيح الأوضاع ..تأتيك كمية من التفائل مفاجئة .. تجعلك تريد الخروج ومقابلة الناس .. لكنه شعور قصير مؤقت .. لأنك في داخلك تعلم أنه لن يفيد بكل حال .. الأمور التي تجعل أعدائك سعداء لا تكترث بها ..فتدرك حجم الفجوة بينك وبينهم . الفشل ليس خيارا لك . فتختار في النهاية أن تصبح وحيدا في عزلتك ..حيث لا يسألك أحد أي سؤال .إحتقار وإنعدام الذات والطموح ..شعوران يصبحان مزعجين .و في النهاية تدرك أنك لا تستطيع الإستمرار بهذه الطريقة .فتصبح أمام خيارين قد يحدثان . إما أن تقرر طلب المساعدة ممن تتق بهم . أو ربما تحاول الإنتقام من جديد .

اصطحبه الى المنزل الواسع التي نورها خافت وتعبق برائحة العطر النفاد وأشعل النارفي في بعض الحطب لادفاء أجسادهم الباردة وايايديهم الخشنة التي لا تعرف واقيات ولا كريمات ترطيب وناوله فراشا دافئا دس فيه جسده مسالما هادئا ومتناغما مع المكان والزمان رغم كل كأبة الطقس

ورغم كل الخطورة التي تهدد تواجده البكتيريا والحرب المحتملة في أي لحظة ورغم كل هدا استسلم للنوم. ان بشاعة تلك الجريمة التي هزت المدينة المكفهرة بطريقة بشعة تسببت في صدمة كبيرة لكل مواطن ولكل الخونة ..فانتظم العشرات من المحقيقين في مهمة المطاردة والبحت عن فرحات بدون هوادة بحيت نشروا صوره في الجرائد وعمموها على المطارات والمحطات والقطارات لكنها كانت من دون جدوى فكل تلك التحقيقات لم تنتهي سوى بالعتور على السيارة المسروقة مركونة في الغابة وان فرحات للهافته التي تتير الأخرين وشكهم ما كانت لتفتح ولو لهنيهة الألسن النمامة ولا فضول الأعين المتطفلة التي تراقب حياته من تحت الظل الكسيح بفعل الخيانة من أقرب الناس يصبح محط الأنظار...

لم يستطع الاستيقاظ باكرا الا بعدما غطا ضوء الشمس الأرض وتسلل اليه عبر النافدة والساعة تشير الى الحادية عشر زوالا فنهض مسرعا وبفضل دكائه وفطرته القوية فقد اتجه الى الحمام وقف امام المرأت ليغير من شكله فقد حلق وجهه ورأسه بالكامل وأعد لنفسه كوب قهوة وتناوله بمهل وهمّ بمغادرة المنزل حاملا مسدسه متوجها نحو الباب لكنه توقف

للحظات يومض في رأسه عملية القتل وعلى وجهه مسحة من الانزعاج لكنها سرعان ما تبدد ليمضي خارج المنزل وفي جوفه ألف شكر للعطار الذي استضافه .وفي تقدمه حذروقلق فيما حوله يسمع صوت وصدى قدماه جيدا الى ان استوقفه منظر محزن يحزن اللب والبصر أمام مقهى الرحمة على أمرءة حافية القدمين مهترئة الملابس تنتظر من يشفق عليها بقطعة نقدية أو قطعة خبز لتسكت معدتها الخاوية لترضع طفلها الباكي من شدة الجوع ولفحات الحر المتوهج والناس يمرون مواكبا من كل فج وصوب بدون رأفة أو مساعدة لم تجد من يحتضنها سوى الشارع الذي بسط يديه لها بكل حنية .هي التي يقال عنها نواة المجتمع، وحصنه الحصين، مصدر عزته، حاضر الأمة .وصوت التلفاز داخل المقهى ينشد أغنية "بلادي زينة"..ونادلة شبه عارية، وسيلة تروج السلع تخلت عن قيمتها بدعوى تمكنها من الحرية.

انه العالم الأعمى والزمان المخادل الذي تجتاحه الخيانة الجريمة ،والحرمان الذي يترفع على عكاز الخطيئة الوهنة حتى لا يفقد توازنه وتحريف البوصلة الدينية ونزع عنها الأردية الساترة وعوضه برداء المادية

الجشع والفاضع فهل من طريقة لايقاف الفساد حتى يسترد المجتمع أنفاسه؟ومن يحق له تصحيح مسار القطار الذي خرج على مسار الأخلاق؟أم أن الغاية تبرر الوسيلة ؟كل هده الظروف حولت من أمتال فرحات الى نزعة سادية في سن مبكرة كباقي الشباب الذين لا يقدرون الحياة . فبعد فظاعة المنظر تنهد بعمق وقرر أن يكمل الطريق نحو البحر ليزيل الحزن الجاتم على قلبه فمر ببعض الأحياء العتيقة وأزقتها المسنة التي تنتظر مروره بشغف وهو مل التجوال ومشاعر الناس ضحكاتهم،بكاؤهم ،فرحهم،تحسراتهم.الا تلك الفتاة كم تمنى ان يلامس وجنتيها الدافئتين ويهبها تاج الملكة.فتوقف على حافة جرف يطل على البحر يؤنب ذاته مستسلما لنسيم برمته وقرر أن ينهي حياته من هدا العلو الشاهق الذي يكاد يلامس السماء ولا مفر من نجاته لكنه فشل في تطبيق قراره باللحظة الأخيرة لما رأى طائر الغراب محلقا يعبر السماء الملبدة،يخترق الغيوم المتفرقة .وعلى رمال الشاطئ الندية طفل يركض حافي القدمين ويضحك بلا توقف ولما يتعب يتوسد الرمل وهناك شاب في نفس عمره يمسك بيد فتاة جميلة تحاول الافلات من يديه بنعومة ودلع

يبدوا أنهما عاشقان يقضيان وقتا ممتعا فيخطوا نحو الأمواج العائمة والمسترسلة لنسائم زكية تلطف رئتيه المكتظة بالغضب وعشق البحر هو أرقى مراحل العشق فهو العاشق للبحر. يمشي بمحادات أمواجه و الأمواج تلامس قدميه . تحاول جدبه إليها . كخيط من الشغف اللا متناهي وكأنها تنتشله من ظلمات نفسه . إنه كشعور ذلك العاشق الذي تخاطبه محبوبته في لحظة الإنتكاسة وفقدان الأمل . فتعيد له سعادة الأيام بكلمات تنسيه ساعات الأرق . التي من خلالها قتلت أحلامه . فتفح أبواب المشاكسة في وجه التشاؤم . أن تعشق البحر معناه أن تكون مخلصا للهدوء . وتعتزل التفاهة . وتبحر معه في غياهب الصمت القاتل . فيصبح لذيك الكلام كالرصاص القاتل . يقتل فيك كل شيئ . وترى فيه سببا لطردك من نعيم الأمواج الهادئة . أن تعشق البحر كالوقوع في الحب . ليس كحب الأنثى . وإنما حب الأمواج التي تعبث بالأشجان . فالأمواج تبقى بصمتها حاضرة . تشدك نحوها . ويزداد الشوق كلما زاد البعد . فيشدك الحنين . البحر بمثابة ذلك العالم الذي يتقاتل الجميع من أجل الظفر به .

والشمس بدأت تحوم نحو الغروب متوهجة بلون الذهب تبعت في النفس بهجة لا متيل لها وأضوائها تتقاطر على مياه البحر اللامعة كقطرات ذهبية تنكسر معها الامواج فرادى .وراودته فكرة تسليم نفسه الى الشرطة لكنه سخر من نفسه قائلا :أسلم نفسي للأعداء النائمون في التكنات دون مقاومة يا للعار؟ فقرر ان يسخر كل قدراته وكل ما تبقى له من وقت ليعيشه في سبيل أن يعاقب كل من لا يقدر قيمة الحياة سواء بطريقة التواصل أو بطرق متطرفة لتعذيب من يستحق ليكون بمتابة انتقام حلو.

الفصل الثالث عشر

لن تصفوا له الحياة مادام الأنذال الخونة،حليمة، عمر.إبراهيم وحساب أخر أسود مع المعطاوي اليد الغادرة.أصل البلايا الشيطانية فمتى يهتز ابتهاجهم المضجر ويأدبهم كعقاب السجان للمسجون .ويزيل عنهم القذارة حتى ولو كانت رصاصاته المتبقية جبانة،طائشة،وذابلة الا أنها ستخترق قلبهم نصرا مدويا وهزيمة دامية،يهتز لها عرش الكبرياء.كما لوتفتح عينيك للمرة الأولى داخل القرية التي تركتها تندب على فراقك وناولتك المسؤولية في سن مبكرة.فكنت بحق راعيا تعشقه الأغنام والطيور.وتغازلك السنابل والزهور. من كل صوب.لكن لم تعد كما كنت لما انقلب دم العمومة خائنا،والحب صفقة خاسرة.الصداقة مكمنها خدلانحتى صاروحيد والجريمة تطارده.دوامة المعارك تفتقر لتنظيم محكم وغدى اسمه سلسا في الحروب الاعلامية بين من يجرمه وبعضهم يمجده بدعوى تائر.فعادليلا يتوارى كشبح نحو منزل العطار،مخبأه الأمن بعدما أحس بالنوم والظمأ..وأوى الأحياء الى مضاجعهم ومراقدهم .ارتفعت لفحات البرد وزفراتها القارسة.ومساكن بنيانها نصب مائلة،وأطياف كصور

متجمدة.غير أنيس لأحد ولا يأنس به أحد على هده الأرض الصماء حتى ارتابه القمر باطلالة لامعة متوهجة باللهب فاختلس الخطى بين الأحشاء المظلمة الى أن باغتته قعقعة مركبة مقبلة نحوه .يمزق ضوئها قطع الظلام المتناترة أمامها.فتريت هنيهة واصفر وجهه، ارتعد جسمه،داب قلبه بين الأضلاع حذرا،اسبالت جفونه،وسكتت أنفاسه. فتوقفت السيارة فجرى مسرعا ملاطما أيدي الرياح المتناوحة حتى بلغ باب منزل العطار،قرعه طرقات متتالية ففتح له الباب وتأكد من خلوة المكان .فأوقف دقات قلبه الصاخبة والمتناحرة.وحبس الدم عن جريانه المتسابق في العروق.فمرر يديه على قطرات العرق على سقف جبينه .فناوله العطار رداء صوفيا وأزال المصباح المصباح عن وجهه صبغة الظلام.ظل يعبث بشعر رأسه بشده حينا،ومسحه حينا.والعطار يتابعه بنظراته، يتفحص كل الارتسامات على وجهه بقلب رحيم يعتصر الكرم.ليقرضه الصبر المعين على عشرته.فدهب الى المطبخ وأحضر له الحساء،الخبز،الشاي..فأسرت تستنيمه الرائحة تجاه الوجبة بعينين تاقبتين كما لو عثر على لؤلؤة باهظة بين القاذورات فتناولها بنهم ليسد جوعه،ويبل غلته.امتلأ وجهه قبل بطنه

كتمرة ناضجة من غصنها الناظر.وملأ لحن الأدان البديع سمعه فخيل اليه أنه نازل من أبواب السماء ليعصف ببذور الشر ويغسل جرمه القذر .رفع رأسه اليه بنظرة شكر على كرمه ونجاته من تقب ابرة نفدت الى أعماق قلبه.فرد عليه قائلا :على الرحب والسعة في أي وقت . تم تلى تعال صلي معي العشاء ليعم قلبك الاطمئنان

-أنا متعب لا تلاطفني كصبي

-النصيحة واجبة على كل مسلم

-بنفس متحسرة...لم ينصفني القدر

-رحمته اوسع لنا

-صعب أن تنتظر الذي لا يأتي وان أتى؟بما يأتي؟

-سيأتيك الفرح من حيت لا تحتسب ولا حول ولا قوة الا بالله.

-الفرح يشترى ويباع وأنا حرمت الصبر والتمني.

-المر...سيمر لا تكن أعمى خلف موكب حالته أشلاء

-لما وعدتني أن تبقى وغدرت ولما الخائن عمر أخد حظي ظلما وعدوانا..

فرد بنبرة أسف:

-المرأة خلقت من ظلع أعوج لا يستقيم

-فسأله بحدة ..لماذا لا يزول الشر على هذه الأرض المتوحشة

صمت قليلا وأحنى رأسه وأجاب بنبرة لطيفة:

-امتحان من الله لعباده..وحرب شرسة بين الخير والشر

-ومن يعاقب هؤلاء الأشرار وهمس في نفسه سأنزع رؤوس الشر على أجسادها

فبعدما تخلص من الأرق،وداعب النعاس جفنيه،وأطفأ المصباح واشتدت حلكة الظلام، ولم يعد بالامكان رؤية شيئ منير.فباغته حلم غرام مهيب،تتقدم فيه جحافل الهوى نحوه في هيئة حليمة متثاقلة الخطى .وصوتها ينساب الى مسامعه كخرير الماء في بساتين الشوق التي نضبت تاركة وراءها حزن بستان وحسرة سنبلة .وهو يصيح في وجهها من أنت ؟لما اخترقتي حدود دولتي متخطية صمامات المراقبة ولم تكتشفك أقمار

الأستشعار لأي بطين منصوب في قلبي .فردت عليه ..أنا حقنة مؤقتة لجراحك الطويلة الأمد ،ورقم رياضي مفقود لن تتم لك أي عملية حسابية دون وجودي. فقبضت على يديه باحكام وامسكت بأغلى خفقة من قلبه الواجف بيدها وسحقته تحت قدميها بلا رحمة .فاستيقظ مفزوعا معرق الوجه وصوت بعيد لحليمة يلعب في ساحة الذاكرة فنهض ووضع التبغ المعطر في ورقة التلفيف بحكمة وأشعلة بعود تقاب (الوقيد)فيزيد دخان السيجارة الليل سوادا قاتما وبينما يدخن اللفافة جلس على وسادته مستمتعا بنباح كلاب ظالة كعزف طويل مخيف فقد تخلى عن موسيقى الناي المفظلة لديه التي لا زالت تبحت في أعماقه عن مبيت في كل ليلة بدون جدوى ولم تستطع ايقاف الحرب التي تجري داخله وبين عمه منذ مدة ولم يحن وضع حد لسفك دماء الأبرياء.فشرب رشفة من الماء وعاد لفراشه لاكمال نومه. مستلقي على سرير فوق الحصير المتأكل،في غرفة لا إنارة فيها .. فقد احترق المصباح كما احترق قلبه الصغير. الذي لا يقوى على النوم والراحة في هذه الليلة المظلمة، الخرساء. منذ أسبوع واحد ،سيجارة في يده تحن له بلا مقابل، يحملق

في صورة لها من شق الجفن والنوم يصارعه . ابتسم كالمجنون ببلاهة ،و شرع يحدث صورتها التي لطالما حملها بجيب قريب من قلبه الذي إمتلئ جمرا من كل الخيبات والخيانات المفاجأة" " قائلا : لقد عدت هشا و ضئيلا و ضعيفا جدا ، لقد أنهكني الحب و أرداني قتيلا ، أقف وحيدا في أرض المعركة وأعلم مسبقا أنني الشهيد الوحيد بلعنة الحب ،في ميدان العشق مسلوب السلاح و القوة ،لقد حولني العشق إلى مجرد كائن صغير لا حول له و لا قوة، لا أملك إلا الخضوع لقلب امرأة استقوت علي بعد أن ضمنت وفائي وصلابة أحاسيسي المرهفة وإستوطنت صممات فؤادي المهترئة ،ودموع تجري مناورات حربية على خديه تشع من وجهه لما يعاكسه ضوء السيجارة في رأسها المشعل كالجمرو ،لقد أعياني هذا العشق الغادروألجم وكبل قواي حتى خارت ،لقد قسمت قشة العشق ضهري .. ارجووك كيف سبيل الخلاص منك !! لما تلاحقينني ألف مرة في دقيقة .. لقد أصبحت تماما كلعنة تعويذة سحرية من مشعود شرير.. إذا حلت بعبد يصيبه النحس و لا يتركه إلا جثة هامدة .. حسنا لا نحس اكثر من وجودي في هذه الرقعة الجغرافية ولا أزيد عن

الجثث إلا بالنفس الذي أستنشقه بصعوبة بسبب ادماني للسجائر المهربة .. ماذا تريدين ايضا !! ارجوووك أغربي عني ولو لليلة واحدة .. منذ اسبوع و انا اتمنى ان احضى بليلة هادئة .. اضع رأسي على الوسادة وأنام مباشرة .. كسائر البشر .. دون تفكير ولا أوجاع .. ولكن .. اجدك في كل مكان في ركن الغرفة .. في تخيلاتي، أفكاري. تحت السرير و فوق الطاولة وأحيانا في السماء .. أجدك في كل مكان .. في كل انثى تمر أمامي .. اراك في كل صوت نسائي .. وفي كل خطوة أخطوها .. في كل سيجارة أشعلها .. اجدك في كل مكان أزوره .. كله يهون .. ولكن أسأل الله ان لا أجدك بجواري في القبر بعد وفاتي .. فأنا أريد ان انعم بالراحة الأبدية هناك .. وحتى ان كنت في جهنم .. فذلك لن يعذبني كما يعذبني طيفك الآن . بينما انت تنعمين بنوم هنيء في فراشك الناعم مع عمر الحتالة الغادرة . لقد كانت من أجمل وأرقى أيام عمرهـ. كأنها طير جميل أحبه جدا، ودائما ما أحب أن ينظر إليه ويحتضنه. ولكن جاء وقت إطلاق سراحه، فإحتضنه بعنف ثم ودعه بالدموع و أطلقه فى السماء . وأخذ يتابعه من بعيد ودموعه قد أغرقت عيونه، أو كسفينة

أطلقت صفيرها الأخير كي تعلن عن بدء رحيلها وأخذ يودعها حتى إختفت عن الأنظار .

الفصل الرابع عشر

مجيش النفس،وقدماه تغني فوق كل الطريق.القصاص الصارم. ويفح منه السأم محاولا ايقاف نبض الحنين، الشوق، الغربة. لكنه يواصل الزحف نحو قلب المدينة زحفا حتيتا لأن هدفه كبير جدا ونبيل جدا .له تاريخ ملوث يحمل لعنته وتلك القطعة المحبة قطعوها بحد الغدر،مزقوها فلم يهتموا بها.تركوها كأنهم يوما ما سكنوها ،هجروها.فبقيت حبهم المنتهي الصلاحية حبا شرسا على الذاكرة،يوقضها باستمرار ويعاقبها .انها عقيدة حب متقيحة ومحطمة لما اتكأ على غير عصاه فأنكسر. ولما أشعل سيجارة تذكر ما تبقى من ملامحها في ذاكرته فلا هو تمل ،ولا أسرار عادت تغريه ولا انتحاب مدينة نائية من العطف.لتجهز على ما تبقى من توق يتيم لأمال كانت منيرة فأضحت فضيعة في جمجمته وأسراب من الوجوه ترحل في عجالة صوب العدم . فخطرت على باله فكرة أن يكتب رسالة غرامية كما يفعل باقي العشاق لكنه لا يجيد الكتابة وهو يتذكر لما كان طفلا قرويا يشاهد جموعا من الأباء من كل القرى وهم يأتون الى بيت عمه، لوجود ابن عمه الذي كان

يقرأ رسائل ابنائهم المهاجرين الى المدينة او الخارج و يعيد كتابة رسائل الاجابة بفضل تفوقه حيت كان يستغل حتى هوامش الورقة لأنها كانت غالية وشبه معدومة. ودبدبة الكهرباء منعدمة .

بينما يواصل مسيره بخطى تابتة وقلب تقرع طبوله حتى رأى ساعي البريد ببذلته المعروفة يحمل حقيبة جلدية أنيقة تحتوي على أشواق،أخبار،وأسرار. يرسم البهجة والسرورعلى وجوه الناس عندما يسمعون طرقاته على أبوابهم .موظف دؤوب يركن دراجته النارية في زاوية أحد البيوت ليطلب شربة ماء ويستريح من حر الشمس وتعب المهنة وشقاوتها ويزيل منديلا مبللا بالعرق كان يتدلى على رقبته النحيلة.اتجه صوبه وفي نفسه فيض من التمني بأن يساعده الى أن توقف بجانبه وهو يمسك بأحد الرسائل غارقا في مضامينها فبادره بالسلام بالسلام فلم يجب بسرعة لأنه كان يقرأ الرسالة ويعيش فيها حلما جميلا وأخيررد التحية.

-وعليكم السلام..ماذا تريد؟

-أود أن أرسل رسالة لخطيبتي وأنا لا أجيد الكتابة

-فضحك ساخرا هل سترسلها فارغة؟

-فرد مسالما..أطلب مساعدتك في كتابة رسالة غرامية

-فرد بغضب :لست كاتب عمومي للخواطر، لن أساعدك أغرب عن وجهي...

ان البنت تحب الرجل الأنيق.إقترض من العطار مبلغا من المال وذهب لمحل بيع الملابس. فاقتنى ملابس جديدة شبابية. تجلب القلب، قبل العين.تم ذهب الى الحلاق فصفف شعره في أبهى حلة وهدب شاربه ، واشترى عطرا رخيصا، بالرغم أنه لا يحب العطور وليست رائحتة قذرة .وأيضا حذاء رياضي رفيع ونظف أسنانه بسواك حتى صارت بيضاء كالثلج لامعة..وهو يشعر بكامل تقته في أن يجذبها،يستميلها ويزعزع كيان قلبها المتحجر.فصار يبحث بين المارة عن شخص متعلم يكتب له رسالة مؤترة.فهو بدون مستوى دراسي،خلق وعاش في جو فقير منذ أن رأى الدنيا..ولم يأتي معلم لمنزله ليعلمه الكتابة والقراءة كعمر ابن عمه ولم تكن له معيشة ارستقراطية ولا ليبرالية ولا يملك سوى روح تسكن

جسده. لم يسبق له ان حصل على لعبة، ولم يزر طبيبا فقد كان يزيل أسنانه بالخيط أو مقبض حديد.فعترعلى طفل يحمل محفظة مدرسية يدرس بالسلك الابتدائي .فداربينهم حوارشيق إبتدأه فرحات قائلا :لماذا تجلس وحدك هنا أ لم تذهب للمدرسة ؟

فرد ونظراته بإتجاه الأرض :طردني الأستاذ وطلب مني إحضارولي الأمر.

-يا للأسف وماالسبب؟

بينما كنت أستعد للذهاب إلى المدرسة . بحثت في ملابسي التي كانت تعد على رؤوس الأصابع. فوجدتها كلها متسخة . و فتشت طويلا عن سروال ما زال لم يتسخ . فلمحت واحدا قصيرا . لم أعرف من أين أتت به والدتي . خضت معه حربا ضروسا . ولم أدخله في رجلاي إلا بشق الأنفس . لأنه كان صغيرا . إتجهت بعدها إلى مكان قرب المدرسة . لألتقى فيه أصدقائي وهم يكتبون الواجبات المدرسية . لأخد من عندهم ما تيسر . وقمت بتدوينه كي لا أتعرض للضرب أمام زملائي . خشيت حينها الضرب . لكني تعرضت للإحراج . فعند دخولي إلى القسم

. إنتبه أستاذي للسروال القصير التي أرتديته .لم أكن حينها أعلم أنه سروال للفتيات . فطلب مني أن أتجه نحو الصبورة والخوف كان يجسد حالتي حينها .. فتواردت إلى ذهني أفكار كثيرة . لربما إرتكبت جرما ويريد أن يقتص مني .لكن تفاجأت حين قال لي من أين أتيت بهذا السروال ؟ فألقى علي محاضرة طويلة عن أنواع السراويل .وقبل أن أغادر سألني كيف إستطعت أن ادخله في رجلاي نظرا لضيقه وأنه علي إحضارولي الأمر لمناقشة الإدارة في هذه القضية.وبعد مرور أيام طويلة لم أدهب لمدرسة أصبحت أضحوكة كل تلميذوأسأل نفسي الآن .كيف تستطيع الفتيات أن يدخلن تلك السراويل الضيقة في أجسادهن؟

-فرد عليه بنبرة لا تخلو من الحكمة: انتم تمتلكون مدرسة رائعة يجب عليك أن تدرس بجد فمدرسة القرية التي كنت أسكن بجوارها كان جرسها يظل صامتا مثل جرس كنيسة مهجورة، بها مدرس يقضي جل وقته في كرسي خشبي ويجمع البيض والحليب والدجاج الذي يحضره التلاميذ لينالورضاه ويسلموا من عصاه ، يحضر قبيل المفتش بأيام آثارهم عندما يرحلون، وربما قام برشوة المفتش وتلك أكثر حزما

وأمنا . الأقسام تعشش في سقفها الشبه المتهالك أنواع من العصافير التي غالبا ما يتساقط بض بيضها وصغارها فوق المطابع، وتغيب القاعات معلوماتية، والأدوات الهندسية مشوهة، من شاهد المعلم يحمل البيركار صدئا يرسم الدائرة بصعوبة، يضنه محاربا من فلسطين يمسك عصا ويطارد صهيونيا في جو مهيب ليخرجه من أرضه . حتى الأقسام كانت مكتظة وتكاد تلفظ التلاميذ من نوافذها، وحبال المدرس الصوتية في ذلك الضجيج، سرعان ما تتحول إلى أوتار مرتخية تصدر ألحانا خافتة، وتصبح العصا أكتر تعبيرا في أيدي التلاميذ.

.فطلب منه بعد إلحاح طويل أن يكتب له رسالة حب. يرسلها الى محبوبته حليمة، فرضخ التلميذ لطلب فرحات بكل سرور. فأخرج قلما ازرق وفكر من مفكرة فرحات . بيد فكره الحائر. يستمد منه الحياة ليتحرك متأرجحا .صعودا بالمد ونزولا على سلم السطر.قلم ازرق بين قضبان أصابع .تمارس التسكع به بين سطور الورق ليرسم حرفا خلف حرف . يقف حينا على حافة السطر و حينا يتخطى السطر . نحو فراغ لا مستقيم .فتسبح الكلمة في شيء من عشوائية الإمتداد بيد فكر مجهد ..

يمتطيء خياله وينشد هل لي بين قلبك مقعد؟ يجاوبه الصدى .كأن لك بينه مقعد . يختنق بين سبابة وإبهام على منصة وسطى يترنح محتضرا ودمه ينزف حبرا مشكلا على أرض الورق نص حب شهودهه عيون تقرأ وقضاته حليمة قد لا ترحم جملة . ولما إنتهى من من كتابة الورقة الغرامية التي خط عليها أجمل عبارات الحب ،طلباته،أحاسيسه التواقة لها. طلب منه اعادة قراءتها لتصحيح بعض الأخطاء والمشاعر فبدأ يقرأ بصوت مسموع

حبيبتي حليمة لقد زاد الشوق وعدنا غرباء.فرأفة بقلب مزقه حبك.دعينا نعود من جديد نلهو كالطيور ونبني أعشاشنا فوق الأغصان:نغني ونرقص على حبنا.فالمال زائل لا يحقق السعادة والراحة .خطرت ببالي فكرة رائعة دعينا نلتقي غدا في شارع ...على الساعة لنهرب معا بعيدا عن هده المدينة البائسة التي لا تحمل مشاعر العطف متلي وختم قائلا حبيبك فرحات أتمنى منك جوابا..

لازالت معه بعض الدراهم مما اقترضه من العطار.فاستقل حافلة عمومية كانت متجهة الى اخر موقف وتمر من ....فهي أول مرة يركب

الحافلة وهي مزدحمة في شوق،فرح،وخوف في نفس الوقت وهو يتمعن في الركاب بعضهم يتبادل أطراف الحديت ونقاش مسالم لروح الأنسة.وأخرون شبان في مقتبل العشرين لصوص يمدون أيديهم للجيوب بكل فخر بارد القلب.الكل يخاف أداهم فيعضون على النواجد تحسرا لفساد المحيط،غير ملامين لتحصيل حاصل،وتسيير فاشل .ويعلوا غناء فاحش صاعد من مشغل الوسيقى لدى السائق في ضوضاء عارمة، ترحل عبر النوافد التي كسرها أبناء الأحياء بدون رحمة.وهو يحدت نفسه الى اين ستأخدني هذه الحافلة في هذا المدى البعيد من الخيبات والانكسارات الى أن لفظته في محطة راعفة،لا اسم لها فإجتازما تبقى من الأحياء، مرتديا ضعفه ولم يأبه لوجود أحد ولماذا سيأبه فهو أصبح الأمنية الضائعة واللقاء الشبه مستحيل مع حليمة ولم يساعده الإبتعاد .إنفطار بعد خدلان.لم يفده الهروب نحو الإنكسار،الإنهزام وإنتظار إنقشاع فجره،إنبعات شمسه ليحظى ببعض الأمل الزائف والنسيم العليل كتذكار عزيزيراه على مشارف الأيام الخوالي.يختلط برائحة القهوة الفواحة والرغيف الذي تعده إمرءة تعيش على عرق جبينها،لاتتسرب إليها همزات

الشياطين وصبية متسولون تغطي الأتربة وجوههم كسواد الرصيف.

لاصوت لصراخهم ولا محتضن لأفكارهم ،المستهلكة أحلامهم في

الهوامش.ولما إقترب أشغل سيجارة لينتشي ،سحب الدخان بشكل مبالغ

حتى إنتهت بين أسابعه،وبينما أصبح امام منزل عمر حيت توجد الحبيبة

حليمة التي سرقت قلبه.في البوابة حارس ضخم طويل القامة بقبضتين،

متنمرتين بعثت فيه قلقا كبيرا. جعله يحس بأنه جرذ صغير، غير مرحب به

وإلتمعت عيناه وركن جسده إلى جدار أحد المنازل. ظل يتطلع في ثراء المنزل

من زخرفة البناء ،خضرة الحديقة التي تجتاز أشجارها أسوار المنزل.إنه

ثراء يستحق أن يعيش فيه فرحات وينال حقه المغتصب بشتى الطرق

وينعم بإنتعاشة المترف.إضافة إلى ذلك يستعيد حليمة رغم أن قلبها يلين

فقط بالرأسمال.بينما هو مسند الظهر الى الجداريتحرى بعينيه الباردة

كالسمكة . فتحت البوابة الحديدية، العظيمة وأطلت منها حليمة الفتاة

الحسناء،المشرقة في طلعتها، تمد رجليها في خطى مستقيمة، لها مقياس

متساوي معراة حتى الركبتين، شعرها متدلي تحركه يمنة ويسرة. رموشها

واقفة كالسيوف في معركة مرتدية فستانا مخططا بالأزرق والأصفر كأنها

فراشة تلامس الأرض الصماء،الميتة.فقام من مكانه يتبعها ببذلة ساعي البريد التي لا تثير الشبهات، وليس بمنأى عن الخطروالمداهمة وبينما تسير بخفة ورشاقة كل من مرت بجانبه يقف يتأمل في جمالها وأنوثتها ،رقتها البالغة حتى ولو إجتازته بمئات الأمتاروتوارت عن أنظاره.فالجمال ساحر وقاتل في نفس الوقت مع رقتها البالغة ،يطارد عطرها المنتشر فيعبقه عطرا في دمه وشريانه،لكنها لم تنتبه لوجوده فقد أجاد التخفي ،اللحاق والمراقبة. حتى دخلت إلى محل تاجر الذهب لتشتري ما يناسبها من خواتم وسلاسل ذهبية فالعيد الأكبر إقترب على بعد عشرة أيام مما جعلها تقتني بسخاء مفرط لتبدوا أكترترفا على المستضعفين .والمعلوم أن كل عيد يعود الغرباء من بعيد إلى أوطانهم ليبتهجوا بالعيد بين عائلاتهم.وفي العيد تنتظر الأم والأب إبنهم لينال رضاهم ،محبتهم وهو بلا أم تحن، ولا أب يسانده.وفي كل عيد ينتظر الحبيب أن تعود حبيبته، وهو ينتظرها منذ زمن على أحر من الجمر أن تعود مرة أخرى.لكن كل هدا أصبح في عداد المستحيل لأنه المسافر،الغريب، والبعيد من زمن.وكذلك الحبيب الذي ينتظر المحبوبة القاسية التي رحلت رغم مابينهم من عهود ووعود ولم

تخبره متى اللقاء؟.إنتظرها حتى خرجت من متجر الذهب وهي منتشية بما إشترته من ذهب ولما توقف أمامها تغيرت ملامح وجهها نحو الخوف الرهيب والفزع الفجائي فبادرها مستبقا بتحية إطمئنان لها قائلا:

-لا تخافي لن أؤديك ؟كيف حال

-ردت بنبرة يطبعها الخوف :بخير لماذا تلحق بي؟

-جئت من أجلك ..

قاطعته قائلة لقد إنتهى ما كان بيننا منذ زمن.

ألا تتذكرينني

أم عدت صورة فوتوغرافية تذكرك بي وهل من العدل أن أحمل حبك في قلبي زوبعة تنقشع .. ومغامرة مظطربة في ألغاز حبك .. وهمسة تلتمس عطفك من القيود . فأضحت همسات بلا قضية ولا ثورة ملحمية ضحاياها قلوب سجنت خلاياك في دمي المتلاحم إشفاقا لك . ؟

هل تتذكريني ..؟

أم خيالك شيع روحي وراء الأطلال والخراب .. أم تعويذة طمست نورك المبارك ..لأجني أسوء أيام المصير الذي تتجاذبه الجراح بقلب حزين متأكل .. ؟

هل تتذكريني ..؟

أم عدت من سبع الخيبات العجاف التي تؤرقك .التي طواها التاريخ في أرشيف خدائع الحب الماكرة. ؟

هل تتذكريني ..؟

أم رسبت مشاعرك في أول إختبار .. وكفر قلبك بمتاليته المفرطة بلهفتي المحبة .. والذكريات تهمر كالمطر تفترسه وتفتك به لوهلة.تغشاه سحب الذكريات فيحاسبها في مخيلته حسابا أسيرا عسيرا .. فهل هناك خير بني على شر؟

هل تشتاقيني ..؟

ام تتجاهلين المعركة المنتشبة في قلبي بقسوة .وأوصدت معاقلك في وجهي لمأساة جديدة ضحيتها أنا ولم تفترهمتك على مؤونتي ومساعدتي.وأنت

عدت على شفيق المغيب لسان من لهب إندس في في أشواقي بجفاء ووحشية أكان أغتيال الحب أمنيتك ؟ فهل أدركت الأنا من كنت؟ومن أكون؟.

ردت عليه والدموع تنهمر من عينيه بعدما تأترت عواطفها بكلمات وتساؤلات فرحات التي مست عواطفها وولدت لها الإحساس بالظلم والخطيئة في حقه قائلة:

-هل أنت صادق في حبك إلى هذه الدرجة من الهيام نحوي

-أكتر مما تتصورين .ولا أستحمل بعدك لبرهة واحدة.

-صدقتك ولا أعرف ما أفعل فأنا خائفة من بطش عمر.

-لا تخافي سنهرب الليلة بعيدا عن هده المدينة الملعونة ونكمل حياتنا معا في سعادة.

-أين سنلتقي قبل الرحيل بعيدا نحو الوجهة المجهولة

-موعدنا أمام الحديقة التي قضينا فيها أوقات ممتعة على الساعة التانية عشر،خدي هذه الرسالة مني إنها لك

-ضحكت بصخب قائلة:كيف كتبت الرسالة وأنت لا تعرف حرفا ولا جرة قلم على ورق.

-هي كلماتي والكتابة من قلم تلميذ يملك قلبا طاهرا متلك.

الفصل الخامس عشر

لم يتناسى توديع العطاركما خسر من قبله الكتير، في الأيام البائسة. التي لم ترأف بقلبه وبظله المطارد بدهاء من أعدائه. ولما انكشف غطاء الصداقة الزائفةّ، الماكرة، من إبراهيم صاحب الدرس المشين. ولكن الوداع لمن أخلف الوعد. فيصافح العطارويضمه إلى صدره كعناق أخير تلاقيا فيه النبض والدم. وإنتشت فيه الخلايا بدفئ كئيب. بعدما إعتادت وولفت بعضها. والدموع تسقط في خشوع حارقة للأهات. وفي الخارج جو مضطرب ممطر. بعد حين من الوقت إشرئب وجه فرحات ببسمة، عريضة. تدل على الشكروالإمتنان لما قدمه العطارله من ملجأ وطعام تم قال له بنبرة رجل بلغ أشده وشرب الحكمة.

-إني سأرحل بعيدا وعلى الرجال أن تجول لتكتشف الكنز المجهول

-أ ليس هربا هذا الرحيل المفاجئ

-بلى رحيل مع الحبيبة

-فهمت. الهدف المضني.. وهل مازالت التحريات تتعقبك؟

-لم تبصرني فهي في قيلولة لا منتهية يسهل ترويضها

-هذا المكان ملجأ لك لا تفقد سكينته

-فكرت في الأمر مليا في ترك حزني إرتا ووليمة له.

-لا أقصد أن أكون قاسيا. لازال هذا المكان ضالتك.

-لاداعي للعجلة لا أريد أن أسبب لك المتاعب.

-أيجعلك هذا تستمتع؟

-بكل تأكيد

-أي حب وجنون هذا ألم تجد غيرها ؟

-فرضت علي خيار المواجهة في مرمى سهامها

-تذكرني بلوحة عنوانها الجرح والجحر الأخير.

- جامله في مزاح:

-ملامح رهيفة على وجهك

-كل شيئ تفكر فيه يظهر على وجهك بألطف ما كان

-هل الحب يعيق الحرية؟

-إحذر أن تتجرد من حريتك بسبب ضحكة جائعة.

ضحك مطولا:

-الضحكة الجائعة أخدت إضرابا وطنيا

-لا تقل سرق حقها الفم

-لا أنسى أنه علي حق وسلف سأعطيه لك لما يستقيم جيبي

-فرد بإمتعاض :

-الصداقة لا تبنى على سلف ،رافقتك السلامة

وقبل أن يخرج من المنزل قال له مازحا

-إبحث لك عن حبيبة عطارة تهبك أعشاب الحب

فأجابه ببرودة :فات الأوان،الوحدة موطني تم سكنت أنفاسه وروحه

وانشرح صدره لصلاة العشاء في تبات وسكينة .

أما فرحات فقد صارت كل أيامه عتمة شهر،وسنينه ظلمة دهر،وعمر كله قهر،فكل يوم يمر مرا، لكنه مزال معه الصبر.وأصبح لأعدائه ذاك الكابوس الذي يديق الرعب. لكل عدو ولو رأه في منامه.يسير نحو الموعد الذي رسمه مع حليمة للهرب بعيدا عن هذه المدينة القاسية التي لم تكن منصفة ولا عادلة. بقدر ما سلبت منه كل الأحبة.لكن الجو هذه الليلة مختلف فقد أصبح متعفنا بغضب الطبيعة التي تمطر وابلا من القطرات ،والريح ما تنفك تضطرب ،يصاحبها رعد مدوي كأصوات المدافع ،أما البرق فينقض على حلكة الظلام بأسواط نورانية فيكسرها إلى شظايا وتتنافر أجزاء الصورة الواحدة لتنتهي نحو التشتت الذي بفرضه إيقاع السواد. كأنه شارع ملعون غارق فيه بلا زاد،كل شيئ يدعو إلى الكأبة .لكن هذا لم يمنع فرحات من الإستمرار نحو الحبيبة التي سرقت قلبه من أضلاعه،ليستعيد لقب الحبيب الأول ،مرتديا سترة وحذاء جلدي بلل الماء غلته ففتح فمه فأطلت جواربه كاللسان .وتنصت بخشوع متيقظ لحديث أمعاءه. وعواء كلب يصارع الألم خارج أحد المنازل المترفة على شكل ألحان

منكسرة.يخطو حذرا من كل صور الظلام المبهمة ومن وحفر الطريق الوعرة .فرغم قسوة الطقس ومرارته إلا أنه أصر على ألا يخلف الوعد والميعاد .فالحب متأصل في خلاياه التي تعادي الخونة ،وجأشه الذي إنفجر غليانا في محاولات الإنتقام الفاشلة، التي أعادت أنيابه المكشرة إلى غمدها .مما ولد لديه فكرة الهروب نحو المجد والقمة.والهروب من العزلة وأعاد لألفته المحبطة توهجها في ذاكرته بعد الإقتراب من مكان اللقاء امام حديقة السعادة فتخيل إليه مشهد اللقاء بأن حليمة لما رأته سارعت إلى إحتضانه بقوة حتى تداخلت أظلاعه في بطنه من شدة الشوق وشكته بهمس متقطع إفتقدتك كتيرا..سامحني مع صدور بكاء طفيف وخفيف للفرح جعله يزيله من جفنيها بكلمة واحدة كانت هي أحبك . وهو يتذكر إطلالتها الساحرة والقاتلة لصمامات حنين فؤاده المترسبة،إنه تائه وغريب بين أحضان الشوارع محاولا السفر إلى عالم الخلاص والحب حيت السعادة المزركشة بإيقاعات أفكاره الصاخبة وما تشتهيه ذاته البالية يلتفت يمينا ويسارا ليزيل مخاوفه من المراقبة وسط أكوام الظلام وفي عينيه بصيص من الأمل ،ليس أمل حياة وإنما أمل لقاء حليمة الملجأ

المتبقي له والذي أعاد لضحكته ترنيمتها في سماء هدا الكون الفسيح تاركا وراءه كل المآسي.

راسما على محياه ابتسامة الجندي العائد من المعركة وحيدا بعدما فقد أحبته في حرب الحياة الطاحنة ولعنة الحب المجنونة فلم يعد يدري أيبتسم لحياته المنكوبة أم يطلق شرارة من الدموع على رفاق الدرب اللذين فقدهم . يسابق الساعة بخفة لكي يصل بسرعة جنونية، لأنه ما عاد الحنين يشبعه ولا الصبر ينفعه ولكن وجودها بجانبه هو ما يرويه ويغديه.ويناشد بداخله كل الأحبة الراحلين. أباه ...لطالما سرت في شوارع الحياة .. طرقت أبواب الأمل.. كانت شمس الألم محرقة ... كان العرق ينتشر على تقاطيع وجهي. و لم يكن لي ظل أستظل به .. سوى ما أذكره من حنانك لي في لقاءنا الأول ... أماه لما يرحل الطيبون بسرعة؟... يا كفاح الأمل .. عند ولادة اليأس .. و يا رمز الحب .. بين وحوش الغاب .. يا نبع الحنان .. عند جدب العواطف . و يا الدفء في ليالي الشتاء الباردة .. أماه .. عندما تجف سهول القلوب من مياه الحب .. و يتضاءل النور .. وسط العتمة .. و يصبح الحنان بالنسبة للبشر ذكرى . أتذكرك في كل

لحظة .. أماه .. تحبو الذكريات إلى نفسي .. أتذكر بعض ملامحك البريئة... تنتشر الأحزان بقلبي ... و يحتويني الألم .... و الخوف من المجهول .. مهلا أيتها الذكريات ... فجسد فرحات هزيل . و قلبه ضعيف. لا يتحمل هذا الزخم الهائل من الألم. أماه ... في كل لحظة و إن كنت بين ناظري . أفتقدك كثيرا . حين لم أجد حولي . من يمنحني الحب مثلكي . وهو يرتابه الكتير من اتساؤلات التي ظلت مستعصية على فهمه البسيط والتي لا يجيد لها جوابا واحدا لما أسير خلف أحلام شبه مزيفة؟وماالفائدة من تحقيق أمنيات خانتها المواعيد؟ أ ذلك عن جهل مني أو سذاجة؟أ تحرق ورقة أخرى من عمرك؟ وتتقدم بعينين مغمضتين نحو نهايتك الحتمية الإنتظار موت والأمل الكاذب موت والحياة في حد ذاتها موت مع وقف التنفيذ . فلا تدعي التمسك بالحياة وأنت تجري نحو الموت . تسلي نفسك بمشاعر حب بليدة . ومتناقضة تنتابك بين الحين والآخر . تصارع الزمن للتغلب على مشاكل الحياة ولا تدري أن قواك محدودة جدا.و أنت تستنزفها خوفا من الموت حتى

تسقطك الحفرعلى طريق التي ناشد السكان إصلاحها قبل كل حملة إنتخابية نم تقف مجددا على قدماك

نتيجة مكابدتك ومصارعتك لعالم فان. ذاهب نحو الزوال. وأنت تطفئ شمعة من عمرك . تذكر أنك بكل بساطة أحرقتيوما من عمرك .. وأن الموت بدأ في مداهمتك . وأنك تسير بخطى حثيثة نحو العجز والهرم والضعف . تذكر أنك في الوقت الذي تشرب فيه نخب نجاحك أو فشلك . يقف الموت بإبتسامة ساخرة في الجهة المقابلة . يبتسم لك بخبث ومكر . يتحين الفرصة للإنقضاض عليك . أخاف الموت . لست أنكر ذلك. لكني أعترف كذلك أني شجاع كفاية ليس لمواجهته . لكن لتهيئ نفسي له الحزن والغم تفتك بجسدي أكثر مماتفعل الحياة ..... إجهاد النفس ونكران حق الذات في راحة مستحقة وتحميلها ما لا طاقة لها به . في محاولة غبية للفوز بالحبيبة. وبلوغ النصر الكاسح وجمع المال وتكوين أسرة غبية . كلها أمور تعجل برحيلك عن هذا العالم . ولا أعتقد أن يوما واحدا من البكاء على جتتك . وأسبوعا واحدا من الحزن حدادا على وفاتك. وشهرين من تذكر حسناتك وصورك وأحاديثك .

يكفيك لتنسى إلى الأبد . وحتى لا أبالغ . سأمنحك دقيقة واحدة يذكرون فيها إسمك في جملة إعتراضية . لا معنى لها رثاء وحسرة مصطنعة على فقدانك نموت كل دقيقة . لكننا لا نملك شجاعة إنهاء اللعبة بحركة واحدة رغم علمنا اليقين أننا خاسرون لا محالة في ظل عدم تكافئ القوى بين الجسد والروح و الحياة والموت الجميع يفضل أن يقتل نفسه سهوا أو قصدا ولا أحد يجرأ على وضع حد لها كلنا كاذبون مخادعون نلعن الحياة ونتمسك بها ونرجو الموت ونخشاه نغني أغنية الأمل في غد أفضل تماما كما يفعل الصغار حين يخافون الظلام.يغنون .

وصل إلى المكان المنشود،إنها الحديقة التي يتوافد عليها كل عاشق ،فلمح حليمة تقف وحيدة تمده بنظرة تاقبة أمام بوابة الحديقة المفتوحة التي تتموضع على جوانبها بضع سيارات يلفها الغموض والشك بسبب بعثرة إصطفافها وإعوجاج إتجاه عجلاتها،والمكان يخلو من كل حركة أو جلبة.فالجمادات أوفى وأصدق جمالا من كل النفوس المتحركة،الخائنة.فخطى نحوها بتغر مبتسم بعدما هاجه الشوق وأتاره

الحنين للإقتراب أكترلتتفقد عيناه سحر نظراتها وجاذبيتها القاتلة التي أسقطت كل محب متله.فبادرها بإبتسامة كللت وجهه سرورا بينما هي ظلت متسمرة بلا حركة.رفعت حاجبيها فإنكمش جبينها وكأنها تعاتبه بحدة مبالغ فيها رغم أن مظهره يدعو إلى الشفقة.وبصوت داخلي ناجاه بأن يندفع نحوها.بسط يديه في مستقيمين محاولا ضمها إلى صدره بإغواء. مخضب برجولة رومانسية. حتى تراقص العطر بين أنفاسه، لكنها تراجعت بضع خطوات إلى الوراء، معلنة عن رفضها. فقال لها وهو يشعل سيجارة شبه مبتلة، منفتا دخانها العكر، بنشوة غاضبة ما بك؟إبتسمي لقد عدنا معا.

فأجابت في إستنكار:من قال لك أننا أصبحنا معا.

رد بشجب:هذا ليس وقت التمثيل هيا بنا فالوقت ثمين.

-لكل شيئ تمن ومن الحب ما قتل.

بعدما ساد بينهما التوتر، انبعثت الأضواء من مصابيح السيارات، التي كانت مركونة بجوار الحديقة، وإلتقطت أدناه صوت أحذية تدب الأرض

،تشتت انتباهه ،اقشعر جلده .وجال بعينيه وحواسه بحثا عن منفذ للهرب لكن دائرة الضوء، إتسعت وأظهرت بوضوح تام عن عمر عدوه اللذوذ، الذي يبتسم بخبث، ورجال وراءه يتطلعون بغير ما رحمة، بينهم صديقه الغادر إبراهيم و المعطاوي اليد الماكرة ،المنحرفة. وحليمة متل كلبة محترسة ماكرة في أرض معادية. ضيقت عينيها اللعوبة،المتمردة.كأنها وقاحة مسبقة، وذوق يكاد يفقده الحب في الأنثى.فهي التي ألجمته، وصهرته رهينا في هذا الفخ المنسوج بإحكام.وبينما ترتعش السيجارة بين شفتيه،شاب شعره رعبا،وشعر بوجهه يذوب خوفا، ويتصبب عرقا في دوامة عجز.ثم أخد تنهيدة ملأت صدره ومد بصره للخونة أمامه فصرخ في وجههم بعنفوان قائلا : من أنتم؟ هل وصلت بكم القذارة الى هذا الحد؟ حتى أنت يا حليمة.

-قاطعه عمر بسخرية:أنا واتق من صدق حبك،ولا طعم لهنائي ما دمت حيا.

-نعم خدعني قلبي وعاكسني القذر في تصفية الأوغاد.

-من المؤسف أن يخونك الأحبة وتطاردك الشرطة..

-يا لسخريتك العفنة، كل شيء كان بسببك...

-لا شك أنك ماكر حتى في الظلام؟

-ضحك عمر وحليمة ومن معه بعظمة مخيفة.

-سأله مجددا وهو يداري الإمتعاض بإبتسامة ساخرة معربدة .مرددا كنت أشعر بالتهديد على الدوام وأتوجس قرفا من التفكير فيك هل تفهم ذلك؟

-نعم سذاجتك هائلة تستحق أن توضع في حاوية القمامة وبقداس يليق بالخونة.

نشوة أسى طغت على باقي مئة ليل اسود ونشوة فرح لحليمة الداهية وسلاح الإغراء صفقت لها الشياطين من كل أرض،أشعلت الزوبعة الحامية ومواقفها المؤسفة. وأفاق أبعد من الطموح وإنفعالات مظطربة أتارت هواجسه التي كانت في كل يوم تطرب مسمعه، وتصادف إطلالته نظراته، فتكاد تحجبه عن الحقيقة المتخفية، وتغوص به في خوض غمار حب وانتقام إنجلى عنه ضياء معونة حرب خاسرة ، لكن المواقف

أصدق كذلك، يا لها من خيبة أمل وقرحة دامية وهو يحادث ذاكرته بغير رحمة جربي أن تهمسي في أذن الحياة، والموت يهمس في أذنك أمام أكثرية ساحقة غاذرة، جرب أن ترقص مع الحياة، والموت يداعبك ويرقص ويراقصك كبناء شامخ، جرب أن تغني سعادة للفرح في ساحتهم التي اصتادتك بالبراءة المصطنعة وانفردت بك وحيدا بلا منفذ أمل ، والموت يغني لك بصخب وغضب، اصرخ في وجه الموت صرخة حياة أبدية ضد الوحشية المترامية والعيون الساخرة المترامقة، كأنها لا تنتهي وقم معلن النصر رغم إنسداد السبل، بكل فخر واعتزاز،

وبإشارة من يد عمر الغادرة،طوقه الحراس من كل ممر ومفر.يتحينون الفرصة للإنقضاض على الفريسة الوحيدة المكسورة.ظل فرحات المحاصر، لا تفارق عيناه حليمة التي بدت له كإمرءة ساقطة، لا تستحق بصيص حب أووفاء.ولم يطلب الرحمة لأنه إقتنع بامتعاض، من الهزيمة النكراء .معتبرا أن طلب الغفران من أعداءه مهانة،شماتة، وألم أشد مرارة من الموت.تم إستجمع قواه بحرارة، رغم برودة قلبه ولسانه الذي لزم الصمت، رغم نباغته في الأدب.وبعد وقت وجيز طبعه التوتر والترصد

.خلقت الريح دوامة لتهييج الغبار وأوراق الأشجار تارة مرتدة. وتارة مندفعة كرشفة رادعة.إنهالت عليه اللكمات، والضربات بعنف شديد من أيادي متصلبة، لا تعرف الرحمة.إنهارت مقاومته كما يتدفق النهر من الجبل. شاع في وجهه إعياء صارخ حتى نفذت قواه من أقسى مكامنها وسقط بلا أدنى وعي.تم تأوه من أعماقه في مقاومة يائسة،أخيرة.ليستقر الذبول تحت جفنيه و أنقطع الهواء عن رئتيه فغاب عن الدنيا في أخر معركة تفوق قدرته، غريزته وقلبه.لقد قاتل الأعداء، قاتل الظروف ، و قاتل حتى نفسه ثم فقد روحه البريئة بعدما نسج الفشل والغدر طريقه.